الدكتور ابراهيم عبده

تاريخ بلا وثائق



تاريخ بلا وثائق

بقلم

الدكتور ابراهيم عبده

١٩٧٥

الناشر
مؤسسة سجل العرب

الغلافة بريشة الفنان حسين بيكار

محتويات الكتاب

الإهداء

إلى أولئك الذين مسّهم الضُّر
فكشفوا عن رءوسهم ودعوا الله ...

دعاء من أجل السادات

اللهم احمه من فيض هذا النفاق الذى أفسد من قبل رئيساً وملكا ...
اللهم زده إيماناً بالحسنيين ... دينه ووطنه ...

اللهم افتح صدره لكلمة الحق ، وقلبه لنور الحرية ، وعينه لما يحيط به ...
اللهم ذكره بما فاته ، وبصره بما هو مقبل عليه ، حتى يستدرك ما فات ، وينجو مما هو آت ...

اللهم إنك كتبت له خالد الذكر حين ربّت على مواجع الأيامى ، ومسح دموع اليتامى ، وأنصف المظلومين ، ورد حقوق المضيعين ، وأطلق سراح المعتقلين ، فثبت اللهم أقدامه حتى يستكمل مابدأ ويحمى ما صنع ...
اللهم اصرف عنه كلمة السوء ، واغفر له ما ادعى لنفسه من سلبيات ، فإنك سبحانك القائل ... والحسنات يذهبن السيئات ...

اللهم إنى لا أنافقه ولا أترضاه ، فهو بشر مثلى لا يملك لى حظاً فى الدنيا ولا مكاناً فى الآخرة ، ولكنه دعاء من أحسن الظن بحادى القافلة بعد أن تاهت فى عواصف الأمس وضيّعها ظلام الطريق ...

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

وعدت فى كتابى الأخير «الوسواس الخناس» أن أنصرف إلى دراسة التجربة التى مرت بها مصر منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ١٥ مايو ١٩٧١ : وأن أقدم هذه الدراسة موثقة مسندة إلى حقائق مسجلة وبيانات صحيحة ، بحيث تجىء دراسة علمية دقيقة لا يختلف فى أصولها اثنان ، ولا تنتطح فى أمرها عنزان ...

وحاولت – كأى مؤرخ – أن أجمع حقائق دنيانا التى عشناها منذ انقلاب محمد نجيب إلى ثورة السادات ، فإذا الذى رجعت إليه ، معظمه – فى ظنى – لا يرقى إلى ما أعرف من معنى للوثائق والأسانيد.

قرأت مثلاً ، خطب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وكتبه ومواثيقه ؛ فهو صاحب النصيب الأكبر فى تاريخ معظم هذه الفترة ، بل هو على وجه اليقين سيد الموقف منذ انقلاب مارس ١٩٥٤ إلى يوم رحيله فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ .

وللأسف الشديد لم أجد فيما ألقى الراحل من خطب أو كتبَ من مواثيق أو أعلن رأيه فى مؤتمرات عامة ، أو أعطى من أحاديث ، انعكاساً على الواقع الذى عشناه ، فهو فى كتبه وخطبه ومواثيقه وأحاديثه مهد لنا الطريق إلى الجنة ! ووعدنا بالرزق الموصول ! وحدثنا عن حياة للمواطنين مرفهة كريمة تُرفع فيها رءوسهم بعد أجيال من الذل و الاستعباد! ثم أصدر قرارات تتصل بالحريات ونظم الحكم هى غاية ما يرجوه الرعايا من راعيهم ، بيد أن شيئاً من ذلك لم يتحقق ولم يوضع قط موضع التنفيذ ! ...

ولكى أكون دقيقاً لم أعتمد على ذاكرتى فى دراسة الأحداث ، وعدت إلى صحف ذلك الزمان ، فإذا هى جميعاً صورة واحدة مقالاً وأخباراً وتبويباً وإعلانا ، ورأيتها جميعاً تحمل الطبلة والمزمار حتى كاد رأسى أن ينفجر مما قرأت وأصابنى الغثيان من رتابة النغم وأسلوب الإيقاع . . .

ثم قرأت كتباً وأوراقاً صدرت عن مصلحة الاستعلامات وعن تحالف قوى الشعب العاملة التى يمثلها الاتحاد الاشتراكى ، ورجعت إلى الكتب الرسمية التى توزع على تلاميذ المدارس وتحكى المفاخر والأمجاد ، كما عدت إلى ما كتب المرتزقة اللبنانيون ونشروا فى بيروت من مؤلفات رعاها سفيرنا ومدهم لطبعها وتوزيعها بملايين الليرات أو ملايين الجنيهات ، وعجبت لم كل هذا الجهاد ؟ فالكتب كلها صورة واحدة كصحف مصر فى ذلك الحين ، وكان يكفى أن يُقتصر على صحيفة واحدة يقرؤها المصريون ، وكتاب واحد تنشره إحدى هذه الهيئات ، فإن المتن سواء فى الصحف أو الكتب تكرار ثقيل وممل لأمجاد وهمية ومغالطات غبية ، ولكنها الدعاية الفطيرة السمجة التى رسمت وخططت حتى لا يغيب عن الأذن النقر على الطبلة أو النفخ فى المزمار ؟ !..

وحاولت أن أستخلص الحقائق من بعض الأفراد الذين كانوا أشد الناس قرباً من السلطان أو لهم نصيب فى هذا السلطان ، وهم مصدر له وزنه وأصالته ، فلم أجد عند معظمهم إلا القليل ، والقليل الذى عندهم لا يخلو من الغرض أو يبرأ من الكذب والنفاق ! ..

حاولت أن أدرس السياسة الخارجية فى عهد عبد الناصر ، فبدأت

بقضية الكونغو وزعيمها لومومبا وخصمه تشومبي ونصيبنا فى هذا كله فلم أجد ورقة صادقة تكشف عن هذا النصيب سواء اتصل برجالنا الذين حاربوا وماتوا ، أو بمالنا الذى بذر وراح هباء .

وأردت أن أعرف بالدقة شيئاً عن حرب اليمن ... الفيالق التى ذبحت فى جبال ذلك البلد التعس السعيد ! ومئات الملايين التى صرفت على « التجريدة » التى أمر بها الراحل عبد الناصر ، وأطنان الذهب التى وزعت على القبائل ، والمشتريات التى عادت بها الطائرات لحساب أصفياء المشير عبد الحكيم عامر الذين حاربوا من مكاتبهم ومنحوا القلائد تزين صدورهم كأنهم من أبطال طروادة أو أبطال مقدونيا فى عهد الإسكندر ذى القرنين !

أردت أن أعلم شيئاً عن هذه الأحداث فلم أجد وثيقة تحكى شيئاً ، فكل الوثائق التى تتحدث عن ذلك إما ضائعة ، وإما فى بطون أصحابها ، وإما فى مكان لا يُراد أن تنبش فيه إلا بعد خمسين عاماً ، فقد يسىء النبش إلى ميت أو حى !.

إن النظام الذى عشناه ثمانية عشر عاماً قد تغير وتبدل بل فى يقينى أنه بدأ يفقد شرعيته بعد ثورة مايو ، ثم محت هذه الشرعية محواً حرب أكتوبر التى فصلت بين الشدة والرخاء ، وبين التردد والمضاء ، وبين العـــار والانتصار .

ويدهشنى أن أصحاب ثورة مايو ١٩٧١ لا يحبون أن يكشف الماضى حتى لاينسف هذا الماضى نسفاً ، ويُعرّى مما ادعوا له من فضل ، ويطلب البعض منا أن ننسى المآسى ما دام القائمون اليوم بأمرنا يُطببّون لنا ويعالجون جروحنا ويبذلون أقصى الجهد لتصفو حياتنا وتخلو من الهم نفوسنا .

وإذن فكتابة تاريخ هذه الحقبة من حياة مصر كما ينبغى أن يكتب التاريخ ، أمر فوق مقدور أى مؤرخ ، لأن حقائق هذا التاريخ محبوسة والكشف عنها غير ميسور ، وليس لمن يريد أن يكتب شيئاً يشبه التاريخ إلا أن يسمع من هذا أو ذاك ، أو يلتقط وثيقة من هنا أو هناك . ويأخذ ما سمع والتقط ، فيدرسه ويحلله ويخرجه مستعيناً بما شاهد بنفسه ، ثم يسجل ما انتهى إليه فى مثل هذا الكتاب أسوة بما سجلناه فى كتاب « رسائل من نفاقستان » أو كتاب « الوسواس الخناس » فهى وإن لم تكن كتباً تاريخية خالصة ، إلا أنها على أية حال لا تخلو من الحقائق المؤكدة ، وهى ، وغيرها من الكتب التى نشرت ، المشكاة التى سيستنير بها المؤرخون لهذه الفترة المظلمة من تاريخنا حين تتاح لهم الحقائق عارية .

نعم ستتاح للمؤرخين الحقائق عارية من الدجل والتهويش والتهريج ، سواء طال الزمن أو قصر ...

فليقرأ الناس ما استطعت أن أجمعه لهم من الحقائق ، وأكشف لهم من المهازل والمباذل التى سمعنا بها جميعاً ولم تسجل فى كتاب أو تنشر فى صحيفة وإن كانت تلح فى روايتها الألسنة فى النوادى والبيوت والمقاهى وعلى قارعة الطريق ، ونشرتها الصحف فى الخارج مفصلة بالمقال والخبر والصور والرسوم .

ونحن فيما نكتب لا ندمر بل نبصر ، ولا نهدم بل نعمر ، ونكشف للجيل الجديد أكاذيب السنوات التى عاشوها فى غيبوبة ، وننظف أمخاخهم

من العفن الذى حشوها به وترسب فيها ، فإنه لا يزال بين الشباب من يظن أنه ولد ونشأ وترعرع فى عهد نبي ، كما زعم لهم الشاعر نزار قبانى الذى أبّن الرئيس عبد الناصر عقب وفاته فوصفه فى قصيدة بأنه « آخر الأنبياء »(١) ونشرت له الأهرام هذا الكفر متحدية عواطف المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبهذا قرر الشاعر أن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن خاتم الأنبياء ، بل خاتم الأنبياء عنده الرئيس الراحل الذى قال عنه صاحبه وصفيه الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه الذى صدر باللغة الإنجليزية لحساب إحدى الصحف البريطانية ، إنه لم يكن يؤمن — أى عبد الناصر — ببعث ولا آخرة ! ...

ومن عجب أن الشاعر نزار قبانى نفسه أصدر كتاباً بأسلوبه الشعرى المعروف عقب هزيمة يونيو سماه « هوامش على دفتر النكسة » كال فيه الصفعات لسياسة عبد الناصر ، وأثّم نظام حكمه ، وصور البلاء الذى عاش فيه المصريون ، وقرر أن ما نسب إلى الزعيم من قداسة ولماحة ، وفطنة وشجاعة إن هى إلا أكبر أكذوبة مرت بالتاريخ ! ...

وبعد صدور هذا الكتاب العنيف بثلاث سنوات ، ولأسباب غير معروفة ولعلها معروفة ! وغير مفهومة ولعلها مفهومة ! نشر قصيدته المذكورة وقرر فيها أن عبد الناصر خاتم الأنبياء ؟ ! ...

إن قصيدة الشاعر نزار قبانى فى الأهرام التى أبّن فيها الراحل

---

(١) الأهرام فى ١٠/١٠/١٩٧٠ .

عبد الناصر وكتابه عقب الهزيمة ، وكتب التلاميذ المزورة عن تاريخ الثورة وقصر الجميل فيها على عبد الناصر وحده . وكتب المرتزقة سواء فى مصر أو لبنان أو غيرهما من البلدان إن هى إلا نماذج للوثائق التاريخية فيما بين سنتى ١٩٥٢ ، ١٩٧٠ وهى وثائق ليست فوق مستوى الشبهات ، بل لعلها أكذب ما عرف فى التاريخ من وثائق ومستندات .

لذلك أقطع بأن أحداً لن يستطيع أن يكتب تاريخ هذه الفترة التى سيطر فيها عبد الناصر حتى تكشف الوثائق المخبأة فى الخزائن وتفتح الملفات بلا رقيب ، وعندئذ يستطيع المؤرخ أن يزعم صادقاً أنه كتب تاريخ الثورة على وجه صحيح .

أما الحقائق التى يتحدث عنها هذا الكتاب فلا تحتاج إلى وثائق لأنها حقائق عاشها المصريون ، وبعضها حقائق مطوية كشفنـــا عنها بالبرهان والدليل ، وسوف يشيب القارئ ونحن نروى له الهول الذى مر بوطننا والجرائم التى ارتكبت فى حق المواطنين .

أول سبتمبر ١٩٧٥ — إبراهيم عبده

أهي ثورة بلا نسب ؟

إن انقلاب محمد نجيب الذى تم فى فجر ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ والذى كره صاحبه أن يسمى انقلاباً وأصر على أنه حركة مباركة تستهدف « الاتحاد والنظام والعمل» اتفق الناس على أن يسموه « ثورة ٢٣ يوليو ».

وفى بيان محمد نجيب الذى أذاعه البكباشى أنور السادات فى صباح ذلك اليوم ، لم يشر قط إلى أن ثورة قامت . بل أعلن أن الجيش ، وهو جيش مصر الذى « يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور » يريد العودة بالبلاد إلى وضعها الدستورى . وطرد السوقة المحيطين بالملك . وغير ذلك من مطالب كان الشعب المصرى يريدها فعلاً ولا يملك تنفيذ هذه الإرادة ، فجاءت جماعة سموها « الضباط الأحرار » على رأسها لواء معروف لتحقق للشعب ما أراد .

ولا شك أن هذه الجماعة كانت قلة فى صفوف الجيش ، فقد كان الجيش يد الملكية وسوطها ، يهدد به حركات التحرير التى قادها وتحمل متاعبها المدنيون منذ عهد الزعيم الخالد سعد زغلول ، ومن بعده خليفته العظيم مصطفى النحاس .

وكانت جماعة الضباط الأحرار تعمل منذ سنوات لهذا اليوم المشهود ، ومرجعنا فى هذا كتاب ممتع صدر فى بيروت لأحمد حمروش أحد الضباط الأحرار تحت اسم « قصة ثورة يوليو » .

وبالرغم من أن الكتاب فى فصوله الأولى محاولة تاريخية طيبة لسيرة

مصر فى العصر الحديث قبل الثورة بنحو مائة عام ، فإنها محاولة شابتها بعض الأخطاء التاريخية فضلاً عن الأخطاء المطبعية واللغوية ، بيد أن ذلك لا ينفى أن قراءة الفصول الخاصة بقيام انقلاب محمد نجيب أو ثورة ٢٣ يوليو متعة لمن يريد أن يسجل أحداث هذه الثورة فى أمانة وصدق يغبط عليهما المؤلف الذى استطاع أن يكون فى كثير مما روى محايداً فى استخلاص الحقائق وسرد الوقائع والحكم على الناس والأشياء حكماً بعيداً عن الهوى ، بالرغم من ميوله الماركسية وتحمسه الشديد لسيرة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

وقد حيرتنا ثورة ٢٣ يوليو ، وعذبتنا الصحف والكتب والروايات فى التعرف على صاحبها والمسئول عنها ...

فلم أكن أعرف مثلاً أن زميلنا الأديب الصحفى النابه الأستاذ محمد حسنين هيكل واحد ممن فجروا هذه الثورة ، فقد كان علمى يقف عند مقامه المقدور لدى الرئيس جمال عبد الناصر بعد قيام الثورة ، حتى زعم البعض أنه كان شريكاً له فى المسؤولية بالارتباط العجيب الذى كان بينهما ، وبالصلات الوثيقة التى ربطت بين مزاجيهما فى معالجة الأحداث والناس ، وتناول الأمور على نحو فريد لم تعرفه مصر لا فى أيام الملك ولا فى سنوات الاحتلال ، بل لم تعرفه حتى فى أيام الفراعين .

كنت جاهلاً بمقام هيكل فى تفجير ثورة ٢٣ يوليو حتى قرأت كتاب فؤاد مطر « بصراحة عن عبد الناصر — حوار مع محمد حسنين هيكل » وفى الصفحات الأولى من حوار الكاتب مع هيكل خرجت بهذه الحقيقة

الى فاتتنى ، وفاتت على ما أعتقد كل من تعرض لقيام ثورتنا ، فإذا زميلنا هيكل ، قبيل الثورة بسنوات وشهور . وليلة قيامها ، وبعدها بأسابيع مشارك فى ترتيباتها وتطوراتها ، يفتى بالرأى ، ويوجه عبد الناصر ويبصره حتى نجحت الثورة وحققت ما رتب له وأفتى به !

وبالطبع لم يذكر هيكل شيئاً كثيراً عن أدوار زملائه « الضباط » الذين قاموا بهذه الثورة ، وقصر معظم إجاباته على البكباشى جمال عبد الناصر الذى تحدث طويلاً عن صلاته الوثيقة به منذ حرب فلسطين ، ولم يتحدث عن محمد نجيب إلا ليقلل من شأن دوره فى قضية هذه الثورة ، وعنده أن اختيار الرجل ليتصدر الحركة لم يتم إلا لأنه كبير السن ! أما الأبطال الحقيقيون الذين تحملوا المسئولية وأدوا المهمة وأنجزوا المعجزة كالبكباشى يوسف صديق الذى اعتقل كل الضباط العظام فى مجلس قيادة الجيش ، والقائمقام أحمد شوقى الذى احتل المراكز الحساسة فى القاهرة ، مثل هذين البطلين لم يكن لهما نصيب فى تلك الليلة العظيمة التى فجر فيها هيكل وزملاؤه ثورة ٢٣ يوليو .

وهذا السر الذى أذاعه هيكل عن نصيبه الموفور فى تفجير ثورة يوليو قد شغلنى وأنا أحاول دراسة الوثائق القليلة المتصلة بهذا الموضوع ، بل حيرنى أن يكون المصدر الوحيد لدور الأستاذ هيكل فى التحضير والتفجير للثورة هو الأستاذ حسنين هيكل وحده ، وأن شهوده على كل ما جاء فى هذا الموضوع قد ماتوا أو انتحروا !

أما الشهود الأحياء الذين ذكر أسماءهم الأستاذ هيكل وهو يتحدث عن نشاطه فى تلك الليالى ، فإن أحداً منهم لم يوثق دعواه ، بل إن الرئيس

الأسبق محمد نجيب له رأى فى هيكل نفسه ذكره فى كتابه « كلمتى للتاريخ » وفى أحاديثه مع مجلة الحوادث وغيرها ، ينفى أن يكون لهيكل أى نصيب فيما رواه عن نفسه فى كتاب مطر المذكور ، بل لعل رأى ذلك الرئيس يضع هيكلاً موضع الاتهام فى كثير من الأمور ، وينفى نفياً باتاً صلة هيكل بالثورة ورجالها وفى مقدمتهم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

ثم يجىء الضابط أحمد حمروش ، وهو خير من أرخ لأيام الثورة ورجالها فيقول « ولم تتسع حلقة الاتصال بين المسئولين الأمريكيين وبين الضباط الأحرار رغم اعتمادهم — أى الأمريكيين — على الصحفى المقرب منهم محمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة فى ذلك الوقت ورئيس تحرير الأهرام فيما بعد ، لأنه لم يكن قد تعرف بجمال عبد الناصر أو غيره من قادة تشكيل الضباط الأحرار حتى ذلك الوقت أو اكتسب ثقتهم »(١).

يمضى أحمد حمروش فيذكر فى كتابه أن مصطفى أمين أرسل هيكلاً مع رفيق له إلى محمد نجيب بعد عودته من مقابلة لمحمد هاشم وزير الدولة فى وزارة صهره حسين سرى ليتعرفا منه — أى من نجيب — رأى الضباط الأحرار فيما وجهه إليهم الوزير هاشم من اتهامات خاصة بتحريضهم ضباط الجيش للثورة على النظام فيقول « فلم تكد تمضى لحظات — على لقاء محمد نجيب لهيكل وزميله — حتى وصل جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر والتزما الصمت حتى لا يدور الحديث مع نجيب أمام الآخرين ... وهنا طلب هيكل تعريفه بالضابطين ، وكان هذا هو اللقاء الأول بين جمال عبد الناصر ومحمد حسنين هيكل » (٢) .

---

(١) قصه ثورة ٢٣ يوليو لأحمد حمروش ص ١٨٠ .

(٢) قصة ثورة ٢٣ يوليو لأحمد حمروش ص ١٩٢ .

وإذا صحت بيانات محمد نجيب عن هيكل فى كتابه « حكايتى مع التاريخ » وبيانات أحمد حمروش فى كتابه « قصة ثورة ٢٣ يوليو » فإن كل ما ذكره زميلنا هيكل فى حواره مع الأستاذ فؤاد مطر عن صلته بالثورة وجمال عبد الناصر ، يكون قصة ممتعة أنتجها وأخرجها خيال واسع لأديب رائع الفكر والأسلوب !

تحية طيبة مباركة لاثنين من المدنيين ، شاركا فعلاً فى الإعداد لهذه الثورة ، وأبت وطنيتهما أن سجلا تفاصيل هذه المشاركة فى مقال أو كتاب .

لقد مهدا لهذه الثورة بمقالات فى الصحف ، وبطبع بعض منشورات الضباط الأحرار ، وبالاجتماعات يعقدونها مع هؤلاء الضباط ، فى بيتهما أو فى صحيفتهما ، وشاركا بالرأى والدرس فيما يحسن أن يعمل لإنقاذ البلاد مما كانت فيه من بلاء ، وأخذت العيون تترصدهم من رجال المباحث والمخابرات ، وعرضا بذلك رأسيهما للبتر ، أو قضاء معظم أيامهما على أحسن الظروف فى السجون والمعتقلات .

تحية طيبة مباركة لإحسان عبد القدوس لجهاده الطويل بما كتب وبما قدم من رأى ...

تحية طيبة مباركة لأحمد أبو الفتح ، فإن دوره لم يقتصر على اللقاءات والدراسات وطبع بعض المنشورات ، بل لعله شارك فعلاً فى قيام هذه الثورة حين اتصل من الأسكندرية بصهره ثروت عكاشة ظهر ٢٢ يوليو ، ألقى إليه بأخطر نبأ عجل بقيام الثورة بعد ساعات ، فقد أنبأه بشفرة

خاصة أن الملك أعد كميناً للقبض على جميع الضباط الأحرار عندما ينتصف الليل ، وكان عند ثروت زميل من الضباط الأحرار يتناول الغداء ، فطوى كلاهما صحاف الطعام ، ومضى كلاهما إلى الصحب والزملاء ، فسبق الصحب والزملاء الملك وتحقق الرجاء .

ولم يقف تاريخ الصلات بين أحمد أبو الفتح وبين الثوار على الشهور التي سبقت الثورة ، بل استمرت الصلات وثيقة قوية بعد قيامها ، وكم من أمور طيبة تم الاتفاق عليها لصالح الشعب في الغداء الأسبوعي الذي كان يتناوله أعضاء مجلس الثورة عند أبو الفتح ، وكم من بلاء وقفه — إلى حين — أحمد أبو الفتح وهو يقنع أصحابه الضباط الأحرار في هذا اللقاء الأسبوعي بالتريث والتخفيف من غلوائهم وشطحاتهم ...

لقد فاز هيكل بالحسنيين عندما انفرد بالحكم عبد الناصر ، ونال إحسان وأبو الفتح جزاء سنمّار ، فاعتقل الأول شهوراً وطرد من صحيفتيه روزاليوسف وصباح الخير ، وحرم الكتابة في أي مكان ، وهرب الثاني إلى أوربا بعد أن تهيأوا لاعتقاله ، وصودرت أملاك وأموال وشركات أخويه ، وأغلقت جريدة المصري الصحيفة الثورية التي فتحت صدرها للثورة حين قامت وفي مطابعها طبعت بعض منشورات الضباط الأحرار ، وطورد الرجل في الخارج وأسقطت عنه جنسيته ، ورصد لمن يأتي به في صندوق حيّاً أو ميتاً مبلغ ضخم من مال اتحاد قوى الشعب العاملة !

ثم جاء القديس الذي يسمونه محمد أنور السادات ورد للأول مقامه المقدور ، ولا يزال يطب للثاني لعله أن يزيل من قلبه الأسى ، ولعله أن يعيد إليه قلمه طليقاً بعد سجن دام من السنين إحدى وعشرين سنة ...

ومع ذلك كله وبعد ذلك كله ، فإننا لا نزال حيث بدأنا لا ندرى لمن تنسب ثورتنا المجيدة ؟

لقد ذكر أحمد حمروش نصيب جميع الذين قاموا بهذه الثورة ، مهما يصغر دورهم أو مهما يضوئل شأنهم ، بيد أنه كناصرى متحمس قد أكد فى أكثر من صفحة أن مدبر الثورة ورئيس الجماعة هو جمال عبد الناصر ، وهو كمؤرخ منصف فصّل فى أكثر من موقع دور محمد نجيب قبل قيام الثورة بشهور ، وليلة قيامها ، وأبرز نصائحه وإرشاداته ، وتحدث عن تاريخه فذكر أنه الضابط الوحيد الذى استقال فى ٤ فبراير ١٩٤٢ حينما هاجمت الدبابات البريطانية قصر عابدين ، وأنه الضابط الشجاع الذى حارب بشراسة فى فلسطين ، وتعرض للموت إثر جرح عميق أصيب به فى مواقع القتال ، وأنه الضابط العظيم الذى تحدى الملك وناصبه العداء حتى أخرجه من مصر ، ثم قرر المؤلف فى كتابه أن الضباط الأحرار كانوا متمسكين بقيادة هذا اللواء الشهم الشجاع ، واعتبروا أن وجوده على رأس حركتهم هو الدعامة الوحيدة لنجاح أى ثورة لهم أو انقلاب ، فهو الرجل الذى سيمثل البلاد فى « مواجهة الملك والاستعمار وكل أخطار المرحلة »(١) .

ولم يكن محمد نجيب واجهة للثورة غير معروف فجىء به من عرض الطريق ليتولى القيادة احتراماً لسنه كما يقول هيكل ، بل إنه مجاهد عظيم منذ شبابه ، إذ أعلن مع أكثر من ضابط تأييده المطلق لسعد زغلول فى ثورة ١٩١٩ فاعتقلته القوات البريطانية ، وفى ذلك يقول أحمد لطفى

---

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليوس ٢٠٥

وأكد وهو من الضباط الناصريين « إن ضابطاً اعتقلته السلطة سنة ١٩١٩ وهو ملازم هو الذى قدمته حركة الضباط الأحرار رمزاً لها صباح ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وهو اللواء محمد نجيب » (١) .

بل إن جمال عبد الناصر نفسه بصم بأصابعه العشرة على أن اللواء محمد نجيب كان مفرق طريق فى تاريخ مصر ، فيقول فى خطاب وسط آلاف المصريين من سكان بنى مر — القرية التى ولد فيها عبد الناصر سنة اعتقل نجيب لتأييده ثورة ١٩١٩ — يقول عبد الناصر « باسم أبناء هذا الإقليم أرحب بك من كل قلبى ، وأعلن باسم جميع الفلاحين أنّا آمنا بك ، فقد حررتنا من الخوف والفزع ، وآمنا بك مصلحاً لمصر » .

وبالرغم من أن محمد نجيب حرر عبد الناصر « من الخوف والفزع » حتى أعلن إيمانه به « مصلحاً لمصر » فانه نحاه عن السلطة واعتقله أكثر من خمسة عشر عاماً ، وحرمه مخصصاته كرئيس سابق للجمهورية !

ومع كل ما ذكره حمروش عن محمد نجيب كقائد لليلة العظيمة ، وكرئيس للجمهورية ، وما قاله غيره من المعاصرين ، من أدباء ومؤرخين عن موقفه البطولى فى ثورة ٢٣ يوليو فان حرفاً عن الرجل لم يسجل فى كتب التلاميذ ، بل حرم على الصحف المصرية أن تذكر اسمه بأى مناسبة منذ سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٧١ .

ثم ذكر أحمد حمروش بالتفصيل الدور العظيم الذى قام به البكباشى يوسف صديق . وكانت أفكاره يسارية إلا أنه كان من أشد الضباط حماسة

---

(١) من كتاب « دراسات سياسية — ٢٣ يوليو خمسة أبعاد » ص ٨٩ .

لحرية الرأى واحترام الدستور ، وكان الرجل مريضاً كما قيل بالسرطان ، وعندما استعد لأداء ما كلف به من واجبات فى تلك الحركة ، فوجئ بالدم ينزف من صدره « فتناول حقنة فى الرابعة مساء لمنع النزيف وهو فى معنوية عالية يهيئ نفسه لواجب الليلة »(١) .

ولا أستطيع أن أنقل من كتاب حمروش تفاصيل ما فعل صدّيق فى تلك الليلة ، فان ذلك يحتاج إلى كتاب لا إلى صفحات معدودات .

إنه كان قمة فى الشجاعة وإنكار الذات ، وكان فى مطلع المسيرة أول من وضع المسمار فى نعش نظام عاشت مصر فى ظله قرناً ونصف قرن من الزمان ، فاقتحم القيادة العامة واعتقل ضباطها العظام ، والتقط من الطريق كل الضباط الكبار الذين خرجوا ليقضوا على الثورة ، وحبسهم أو ضمهم إلى جانبه ، ثم جلس فى انتظار محمد نجيب قائد الحركة الذى كانت «الخطة» أن يجيء ويقف على رأس ضباطه وجنوده حين ييسر له ذلك ، البكباشى الشهم الشجاع المريض بالسرطان ...

وبعد شهور فصل البطل يوسف صديق من مجلس الثورة ، وألزم بيته ثم اعتقل ، وحرم على الصحف والكتب أن تكتب اسمه حتى يموت موتاً أدبيًّا كما كان يفعل الأباطرة مع خصومهم من أحرار الرومان .

ثم مضى الرجل العظيم إلى ربه منذ شهور دون أن يقام له تمثال ، أو يعد له مثوى فاخر معروف ، أو ترصد لأسرته مخصصات ما كان ينبغى أن ترصد إلا لأمثاله الأبطال الصناديد ...

---

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو ص ١٩٦ .

لمن تنسب ثورة الأحرار ؟

وظفت آلاف الأطنان من ورق الصحف والكتب فى مصر وبيروت والعالم أجمع لتسجل تاريخ قائد الثورة ومفجرها وصانعها وخالق رجالها وأساطينها جمال عبد الناصر ، حتى لم يعد جيل بأسره يعرف غيره من رجال الثورة ، فقد قالت لنا الصحف والكتب بكل لغة ولسان إنه وحده صاحب ثورة ٢٣ يوليو التى خلقت شعباً لم يكن له وجود ، وإن كان هذا الشعب الخالد موجوداً قبل أن يكون للتاريخ وجود ؟ !

ولا أريد أن أعتمد فى تسجيل نسب الثورة على ما كتب هيكل أو محمد نجيب أو غيرهما من الأنصار والخصوم .

وكمؤرخ غير متأثر بما سجلته أطنان الورق الذى طبعت عليه سيرة عبد الناصر فى كتب وصحف ، أؤكد أن للرجل نصيباً ضخماً فى التحضير للثورة والدعوة لها فى صفوف الجيش ، وعند أحزاب القلة من المدنيين ، وكان هذا النصيب واضحاً جداً قبل قيام الثورة بعدة سنوات . أما ليلة الثورة فنصيب الزعيم هنا نصيب يثير الحيرة ويدعو للتساؤل ، وهو تساؤل شديد الوطأة على صاحب هذا التاريخ العريض ...

لقد كان يوسف صديق وأحمد شوقى وكمال الدين حسين وخالد محيى الدين وثروت عكاشة وعشرات غيرهم فى مواقعهم ليلة الثورة ، يؤدون واجبهم أحسن الأداء فى فدائية وشجاعة . وكان رئيسهم محمد نجيب فى بيته « حسب المخطط الموضوع » كما يقول حمروش . يلبس بزته العسكرية ويتعجل اللحظات ليمضى إلى مركز قيادته ، ويعلن « حركته المباركة » على شعبه المتعطش إلى الحرية ، والذى ضاق بالملك وسياسته وسيرته وبطانته ...

فأين كان رائد الثورة وزعيم الأحرار ؟

يقول الضابط محمد رياض فى مقال نشرته له مجلة الحوادث البيروتية، إن البكباشى جمال عبد الناصر كان ليلة الثورة فى صحبة « مشيره » وصديقه ورفيق جهاده الصاغ عبد الحكيم عامر فى لباسهما المدنى يجلسان فى سيارة الأول، بعيدين تماماً عن المعركة التى قادها وكسبها البكباشى يوسف صديق ، وقدر المسافة بين السيارة المدنية وراكبيها الضابطين المدنيين وبين مسرح « العمليات » بنحو كيلوين من الأمتار ...

ثم يمضى محمد رياض فى مقاله فيقول إن عبد الناصر وعامر حين علما بأن صدّيقاً قد أنهى المهمة وقبض على قادة جيش الملك وصفّى جيوب المقاومة بعسكره القليل وشجاعته النادرة ، أقبلا بملابسهما المدنية حيث سيطر الرجل على مبنى رئاسة الجيش ، فقبض عليهما جنده ، فقد ظن الجند أن زعيم الضباط الأحرار وزميله من رجال مباحث الملك أو مخابراته ، وقادوهما إلى يوسف صديق ، فأمر باخلاء سبيلهما ، وأتاح لهما فسحة من الوقت ليرتديا فيها بزة الجند وسلاحها ، وينضما إلى سائر الزملاء من الضباط الأحرار ، وأخذت لهما الصور مع الجماعة ونشرت تلك الصور على الناس ، ومن عجب أن يوسف صديق لم تظهر له صورة بين الثوار ؟ ! ...

هكذا حكى لنا الضابط محمد رياض ، وحين قرأت ما كتب ، وسمعت ما حكى ، راودنى الشك فيما كتب وقال ، لأن رياضاً كان وما يزال من أقرب الناس ، إن لم يكن أقربهم إلى محمد نجيب ...

ورحت إلى الضابط الناصرى أحمد حمروش الذى تغلب فى كتابه على

كثير من هواه : فاذا هو أيضاً يؤكد قصة السيارة المدنية التى كانت تقف على بعد بعيد وفى داخلها عبد الناصر وعبد الحكيم عامر يرقبان الأحداث على حد قوله ، وكانا فى ملابسهما المدنية نقلاً عن رواية يوسف صديق(١)

والرواية الأولى التى رواها محمد رياض ، والرواية الثانية التى رواها أحمد حمروش ، لا تختلف إحداهما عن الأخرى فى المضمون ، فلا شك أن الصاحبين (عبد الناصر وعامر) كانا — كما اتفقت الروايتان — يرقبان الأحداث من بعيد ، ولكن أحمد حمروش لم يقل لنا وهو يسجل الأدوار التى قام بها أحرار الضباط فى تلك الليلة ، إنه كان من « المخطط » أن يجلس عبد الناصر وعبد الحكيم عامر فى سيارة الأول وفى ملابس مدنية ليرقبا الأحداث ! كما قرر فى حسم وفى أكثر من موقع أنه كان من « المخطط » أن يبقى الجنرال نجيب فى بيته وفى لباسه العسكرى حتى تضاء له العلامة الخضراء فينتقل إلى مركز قيادة الثورة ليعلن قيامها على الشعب مع نور الصباح .

ولم أقرأ فى التاريخ أن قائداً ما أو ثائراً ما جلس فى سيارة بعيداً عن مكان المعركة وهو فى ثياب مدنية ، إلا أن يكون واحداً من عامة الشعب خرج مصادفة فرأى تجمعات عسكرية ، فوقف من بعيد يتفرج على هذه التجمعات ، ويرقب ما تعمل من باب حب الاستطلاع ، وحب الاستطلاع من نزعات الإنسان ، يتفق فيها المصريون وغير المصريين من الناس .

ولعلها المرة الأولى فى التاريخ التى يجلس فيها ضابطان بملابس مدنية فى سيارة مدنية ويشاهدان من بعيد ثورة تقوم ويشاركان « بالنظر والمشاهدة » فى

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو ص ١٩٩ .

هذه الثورة فيجزيان على ذلك خير الجزاء، إذ يصبح الأول بعد سنة نائباً لرئيس الوزراء ثم رئيساً للوزارة والثانى قائداً عامًّا للجيش قافزاً فى رتبه العسكرية أربع درجات ، ثم تمضى سنتان أخريان فيصبح الأول رئيساً للجمهورية وينال الثانى رتبة « المشير » وهى أعلى رتبة تمنح لقائد تمرس على الحرب وخاض المواقع واكتسح الأعداء ، ولم تمنح قط لصاغ فى أى جيش كل رصيده فى الجهاد أنه رأى من بعيد ثورة تقوم ، ويقوم بها أحرار حملوا رءوسهم على أكفهم ، وغامروا وخيال المشانق يداعبهم فى كل خطوة من خطاهم (١) .

وأعلم من التاريخ أن جميع المتآمرين على جميع الأنظمة التى تآمروا عليها ونجحوا فيها ، شاركوا مشاركة الأصيل فى تآمرهم .

رأينا ذلك فى بروتس وهو يشارك فى القضاء على قيصر صديقه وصفيه!

ورأينا ذلك فى مجموعة من ممثلى الشعب الفرنسى وهم يحاولون قتل وبسبيير ليقضوا على عهد الإرهاب وحكم المقصلة ....

ورأينا الجنرال بونابرت فى انقلاب « بريمير » حين أراد أن يغير حكومة الإدارة يذهب بنفسه على رأس جنده ويدخل إلى مجلس الشعب

---

(١) عند ترقية عامر من رتبة الصاغ إلى رتبة اللواء استقال احتجاجاً على ذلك قائد الطيران الأميرالاى حسن محمود . أما عن مقام المشير عامر كعسكرى ، فقد بينه لنا هيكل فى كتاب « عبد الناصر بصراحة » فقال «إن عبد الحكيم عامر كان نصف فنان ونصف بوهيمى ولطيفاً جداً ولكنه عسكرياً توقف عند رتبة الصاغ ، أى أنه يستطيع أن يقود كتيبة لكنه لا يستطيع أن يقود جيشا . لقد أصبح عبد الحكيم عامر ضابطاً سياسيا . والضابط السياسى لا يمكن أن يكون مسئولا عن قيادة جيش .

يقبض على نوابه ويقضى بذلك على النظام القائم ، ويعلن نفسه قنصلاً مع قنصلين آخرين . ثم قنصلاً أول ثم إمبراطورا ...

ورأينا ذلك حين سار موسولينى على رأس رجاله فى قمصانهم السود مئات الأميال حتى دخل روما وفرض حكمه على ملك إيطاليا ربع قرن من الزمان ، ولم يبق الرجل فى ميلانو ثم أدرك رجاله بعد نجاحهم ليقدموا له السلطة على طبق من فضة أو فى وعاء من ذهب ؟! ...

إن القيادة فى النفضات والحروب والثورات حاضرة دائماً مع رجالها ، تقاسمهم عنـــاء الجهاد والقتال ، وتتحمل معهم الخواتيم سيئة أو سعيدة ولا تقف من بعيد فى ثياب مدنية حتى تنفى عن نفسها تهمة التآمر عند اللزوم ؟ ! ...

ولـِمَ نضرب الأمثال بالرومان والفرنسيين والطليان ؟

لقد كانت حياة محمد عليه الصلاة والسلام أغلى ما عند المسلمين ، وما كان أحراه أن يبتعد قليلاً عن ميدان المعركة ، فان فقدانه كارثة ، لأنه نبى ، وليس ضابطاً إن راح أخذ مكانه آلاف من الضباط ، ولكنه صاحب رسالة هى أعظم الرسالات ، ولن ينصره الله إن تخاذل فى الجهاد من أجلها أو تقاعس عن رد أعدائها .

وكان النبى العظيم مع المؤمنين برسالته فى كل مواقع الحرب التى دارت بين المسلمين والكفار ...

وبعد فانى حائر مع الحائرين ... لمن تنسب ثورتنا ؟

آنصدق هيكلاً وآلاف الأطنان من ورق الصحف والكتب ؟ أو نصدق محمد نجيب وأحمد حمروش والقليل من الكتب والمقالات التي حاولت الصحيح ؟ أو نشكك فيهم جميعاً بعد أن حبست الحقائق وأخفيت الوثائق وترك الأمر للاجتهاد مرة وللتزوير مرات ؟

وإنه لأمر عجيب أن تكون الثورات الكبرى في التاريخ معروفة الأصل ، واضحة المعالم ، ظاهر فيها كل من ساهم في أمرها ، إلا ثورتنا هذه التي اختلف في أمرها الأفراد وتصارعت من أجل قيادتها الجماعات...

الثورة الفرنسية من يومها الأول في سنة ١٧٨٩ معروفة تفاصيلها ، لم يشكك في أمر هذه التفاصيل المؤرخون الذين عايشوها أو المؤرخون الذين جاءوا من بعدهم ...

والثورة البلشفية التي فجرها الماركسيون في سنة ١٩١٧ هي الأخرى معروفة جذورها ، واضحة حقائقها ، لم يطمس المزورن أمر من قاموا بها ، مع أن الناس تشيعوا لهذا الفريق أو ذاك ، وتناحر مفجروها فيما بينهم ، وحارب بعضهم بعضاً ، بل لاحق الفريق المنتصر الفريق المنهزم خارج البلاد ، وتمت عمليات اغتيال بعيداً عن روسيا ، ونزفت دماء كثيرة سواء في موسكو أو سيبيريا .

ومع أننا قمنا بانقلاب فقط ، ربما تطور إلى ثورة بعد سنوات بما أحدث من تغيرات سياسية واقتصادية وأخلاقية أيضاً ! فإننا حائرون فيمن كان له النصيب الأكبر في هذا الانقلاب ويستحق ولاء الحق والتاريخ !

ولكن مهلاً ، فان الزمن كفيل بأن يعرّى من لا فضل له ، ويرد لصاحب

اليد حقه الذى حرموه إياه بالتزييف والبهتان . وإن من طبع المصريين أن يستردوا وعيهم الذى فقدوه ! ولهم فى تاريخهم القديم أسوة، فقد عبدوا العجل مئات السنين ، ثم تبينوا أنه حيوان لا يدرك فذبحوه ، ومنذ ذلك التاريخ وهم يذبحون العجول ؟ ...

الثورة تأكل بنيها

هذه حكمة قيل إنها فرنسية ...

وقيل إنها سارت مثلاً منذ قالها صاحبها الحكيم الفرنسي ، حين رأى المقصلة تفصل رقاب أعلام الثورة الفرنسية واحداً بعد الآخر ، ولم تتوقف عن نشاطها في عملها إلا بعد سنوات قضى فيها على أبناء الثورة الأوائل حتى لم يبق منهم أحد .

وهذه الحكمة التى فرضت وجودها على كل ثورة عرفت فى العالم منذ ذلك التاريخ ، لم يكن لها إلا استثناء واحد ، حدث مرة واحدة ، وكان هذا الاستثناء فى مصر ، وفى ثورة ٢٣ يوليو بالذات ؟ فان واحداً من أبناء هذه الثورة أكل الثورة ! وأكل بنيها ! وأكل أيضاً كل ما سبق ثورة يوليو من ثورات ! وكانت له معدة قوية هضمت كل هذا فى أربع سنوات حتى لم يبق إلا هو وحده لا شريك له ، يؤتى الخير من يشاء ، ويحبسه عمن يشاء ...

ونستغفر الله العظيم فى عبارتنا هذه فهى وحدها التى تعبر عن واقع عشناه ؟ ...

وقد حاول الدعاة أن يصوروا عبد الناصر بأنه كان على رأس القلة من الضباط الأحرار التى تريد لمصر حكماً دستوريًّا ، وأنه كان وسطاً ، لا هو من أهل اليمين ولا من أهل اليسار ...

وقالوا إنه كان يكره الإمبريالية المتمثلة بالطبع فى الإنجليز والأمريكان!

وقالوا .. وكان يبغض الشيوعية لأنها ضد الأديان ...

ثم زعموا أنه كان رحيم القلب فلم يوافق على إعدام الملك ، إلى غير ذلك من حكايات سجلت فى صحف وكتب عالمية ، وسدد ثمنها لتطبع وتنشر على أوسع نطاق من أموال تحالف قوى الشعب العاملة التى كانت فى غيبوبة نحو عشرين عاماً ، يرتكبون باسمها كل الآثام ، وكان لتحالف قوى الشعب ذاك مؤسسات دستورية أو سياسية أنشئت بقرارات جمهورية ، وذلك قمة السخرية بالشعب الطيب الذى رأى وسمع ثم سكت فى صمت عجيب ، وطال سكوته فى صبر غريب ! ...

لم يكن للثوار قبل ثورتهم حكومة ظل ، أو تخطيط لتحول اجتماعى أو غير ذلك من شعارات ودعاوى ، غير دعواهم التى جاءت فى بيان محمد نجيب فى صباح ٢٣ يوليو ، وهو بيان أثبتت الأيام أنه كلمات إنشائية . لم ينفذ منها إلا طرد الملك .

وكان سقوط الملك فى يناير ١٩٥٢ وشيكاً بعد أن مزق طلاب الجامعة صورته وداسوها بالنعال ، وخرجت فتيات المدارس يطلبن هاتفات بعودة الملك إلى أنقرة ؟ ذاكرات أمه بالسوء ؟ واصفات بيته بالدعارة ؟ ...

فحرقوا القاهرة ليبقى ...

وما كان له أن يبقى بعد أن آل عرشه للسقوط ، وثارت عليه جماهير الشعب من طلبة وعمال وفلاحين ، ولو ترك للشعب ولم يستعجل أمره ضباط الانقلاب ، لقضى عليه الشعب وأنهى حكم بيته على وجه اليقين .

أما بقية بيان محمد نجيب وما جاء فيه عن احترام الدستور والتمكين

للحريات والقضاء على الفساد وغير ذلك من الأمانى والأحلام . فكان لغواً يجىء عادة فى البيان الأول الذى يذاع فى كل ثورة أو انقلاب ! ...

إن ابن الثورة البكر وزعيم تشكيلها كانت فى ذهنه وحده أفكار لا يعلم بها أحد إلا هو ، وأنه بذكائه وألمعيته قد خطط ودبر ورسم لما ينبغى أن يصير بعد نجاح الثورة ، وأنها وإن تمثلت فى ثلاثة عشر ضابطاً على رأسهم لواء ، فانهم جميعاً أطباق شهية سوف يلتهمها وحده . وقد يدعو إليها بعض أنصاره من ضباط الصف الثانى أو الثالث ، وقد يدعو إلى فتاتها بعض الانتهازيين من المدنيين الذين ما كان لهم أن يكونوا إلا فى ظل الطغيان والإرهاب ...

كانت الثورة فى فكر محمد نجيب ثورة وطنية رأسمالية ...

وكانت الثورة فى ذهن ضباط مجلس قيادة الثورة متباينة الأهداف ، فمنهم من كان يريدها لصالح الإخوان المسلمين ، ومنهم من كان يود تطويعها للشيوعيين ، ومنهم من كان يرى ردها للشعب ممثلاً فى حزب الوفد الكبير ...

وكانت الثورة فى ضمير جمال عبد الناصر كل هذا الذى دار فى رءوس الجميع ! على أن تتركز آخر الأمر فى شخصه هو ، وعلى أن يصبح شخصه هو ، ضمير هذه الأمة ، وهو ما انتهت إليه الثورة فعلاً بعد أربع سنوات ...

وقف فى حماسة مطالباً بعزل الملك ...

ووقف إلى جانب الذين رفضوا إعدام الملك ...

ساندأ أشد المساندة الرأى القائل بأن تبتعد الثورة عن فكرة اليسار ح
لا تغضب أمريكا ، ولذلك أيد جمال سالم فى رفضه تعيين الدكت
عبد الرزاق السنهورى رئيساً للوزراء خلفاً لعلى ماهر ، لأن الرجل و
يوماً وثيقة دولية تدعو للسلام . والأمريكان يعتبرون دعاة هذا السلا
ماركسيين قذرين لا يجب أن يقرأ عليهم سلام ؟

وهنا لنا وقفة ...

لا يستطيع أحد أن يكابر فى أن « شيئاً ما » كان يربط بين الرئيس
جمال عبد الناصر وبين الأمريكان ، وأن أمريكا — كدولة أجنبية
كانت هى الدولة الوحيدة التى غرقت يداها فى عجين الثورة ، وتحمست
فى الأيام الأولى لما جاءت به من أفكار ...

فهى التى منعت الإنجليز من التحرك لنصرة الملك حين قام الانقلاب

وهى التى ساعدت على خروج الملك دون متاعب له أو للثوار .

وهى الدولة الوحيدة التى كان سفيرها يتناول العشاء على موائد صديق
له من أعضائها الأخيار ...

وهى الدولة التى كان مندوب القيادة الثورية على صبرى على صلة
وثيقة ببعض رجالها . ويقوم بالسفارة بينهم وبين تشكيل الثوار ... وعلى
صبرى هذا شغل منصب السكرتير الخاص للرئيس الراحل ، ثم اختار
بعد ذلك رئيساً للوزراء ...

وكان عبد الناصر وثيق الصلة برجالات السفارة الأمريكية ، وكانو
يزورونه علانية فى مبنى قيادة الثورة مما أغضب محمد نجيب وغيره من
الأنصار ، أو يقابلونه خفية بعيداً عن الأنظار ...

وهى الدولة الوحيدة التى تلقى عبد الناصر من رئيسها أيزنهاور ثلاثة ملايين دولار عداً ونقداً ، مساهمةمنها فى تخفيف وطأة التزامات الرئيس المصرى ليعالج بهذه الملايين مسؤولياته الكثار ، وإن كانت قد استغلت بعد ذلك ، كما يدعون ، فى إنشاء برج القاهرة الجبار ! ..

وهى آخر الأمر الدولة التى أمرت إسرائيل وفرنسا وإنجلترا بالانسحاب من الأراضى المصرية بعد غزوها فى سنة ١٩٥٦ ولولاها ما انسحبت ، ولتطورت الأمور إلى أسوأ مما كان يتخيله الثوار ...

هذه كانت بعض الخفايا فى تاريخ الراحل وتاريخ علاقته بأمريكا ، وهو مخطط فى سياسته الخارجية كثير من يعرفه ، وكثير من حكوه أو يجلوه فى مقال أو كتاب .

ومضت هذه السياسة متجاوبة مع خطاه فى شئون الداخل حين كان يتحفز الدرج لينتزع الراية من حامليها ، وبدأت هذه الخطى تخضع لضغط الظروف ، فاضطر يوم تم الانقلاب إلى دعوة المدنيين لتولى السلطة ، فاختير على ماهر رئيساً لمجلس الوزراء ، واختير سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة مفتياً للثورة ، وحفيظته — كعضو فى الحزب الوطنى عديم الأنصار — على الوفد ورئيسه كانت مضرب الأمثال .

وقرر سليمان حافظ « مفتى الثورة » تحطيم كل القيم الرفيعة التى جاهدت مصر من أجل تحقيقها سبعين سنة ، فشمر عن ساعديه وأصدر القوانين والتشريعات التى تشفى غل مجلس الثورة بكل تياراته المتباينة ، فوقف العمل بالدستور وحل الأحزاب ليرضى هوى المؤيدين للإخوان المسلمين ، وصاغ قانون الإصلاح الزراعى ليسعد الأعضاء اليساريين ، وأصدر

قانون التطهير ليفصل بمقتضاه آلاف المواطنين ويرطب بذلك أحقاد أهل الثقة من سفلة المدنيين ...

كل هذا الذى فعله « مفتى الحرية » أو مفتى الثورة سليمان حافظ وهو رجل العدالة والقانون .. لم يخفف من حفيظته على أحرار مصر ونخبتها. فاستن قوانين محكمة الثورة ، ومحكمة الغدر ليعدموا أو يسجنوا أو تصادر أموالهم فى أخف الظروف ، وبذلك يصفى من مصر أعلامها وحماتها وحملة مشاعل الحرية منذ أشعلها مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول .

ثم دس بين على ماهر — وعلى ماهر له نصيب فى بعض هذا البلاء للأسف الشديد — وبين مجلس قيادة الثورة ، وأغراهم بالحكم ليلوه ، وله وراء ذلك خبىء ! فسوف يكون فى ولاية العسكر حكم البلاد ، وهم على جهل بالإدارة والسياسة والقانون ، سبب وجيه لتثبيته مستشاراً للحكم العسكرى فى وظيفة نائب رئيس مجلس الوزراء الجديد محمد نجيب ، ثم بوصفه المستشار ، فسوف يشير بتعيين وزراء معظمهم من نكرات الحزب الوطنى ولا يعرفهم أحد باستثناء الدكتور نور الدين طراف الطبيب الذى مارس السياسة منذ كان طالباً فى الجامعة ، وأصبح عضواً فى مجلس النواب ، وكانت له مواقف وطنية مشرفة ومشرقة ، ولا شك أن قبوله لمنصب الوزير ، ورضاءه بأن يمضى فى مناصب الوزارة إبان حكم الفرد وفترة الإرهاب أكثر من عشر سنوات قد حجب كثيراً من هذه الأمجاد .

ومن عبر التاريخ التى لا يريد أن يعتبر بها كثير من الطغاة ، أن المستشار سليمان حافظ لم يسلم من المظالم التى أيدها بما أفتى من قوانين ضد أحرار مصر ، وبما قدم من تشريعات فى مجلس الوزراء أفسدت سلوك المواطنين ، وهزت المثل الرفيعة فى نفوسهم ... هذا المستشار أمر باعتقاله

عبد الناصر ، وعومل فى السجن بأشد ما يعامل به القتلة والسفاحون ، فأهين وضرب وعذب ، وبقى فى سجنه حتى مرض ، ثم أفرج عنه ومات بعد قليل ...

وكم كان سعيداً الابن الذى أكل الثورة وبنيها وهو يشاهد هذه التطورات التى رسم لها من وراء ستار ، فان انتقال السلطة إلى العسكريين أول مدارج النجاح لمخططه العريض فى الوصول إلى ما يبغى ويريد .

فهو يبدأ أمريكيًّا وتؤكد ذلك الوثائق التى نشرت أخيراً فى كثير من الكتب والحكايات (١) .

ثم هو من أنصار الإخوان المسلمين حتى إنه أنشأ محكمة الثورة لتحاكم فيمن تحاكم ، خصومهم وعلى رأسهم إبراهيم عبد الهادى رئيس الحزب السعدى الذى حكمت عليه هذه المحكمة بالإعدام ، ثم استثناهم من قرار حل الأحزاب دون سائر الأحزاب ؟ ...

ثم هو يمينى متطرف حين أصر على إعدام العاملين خميس والبقرى فى كفر الدوار ، فقد كان ذلك منه فطنة ، إذ تحسس ميول الرأى العام ، فاذا هى كارهة لبوادر الماركسية تبدو واضحة فى صفوف العمال ، وليست هناك أسباب أخرى كما سجل هيكل فى حواره مع مطر إذ قال عن خلاف الثورة والعمال «إن طرفى قضية واحدة حدث بينهما صدام فى الظلام ، ولو حدث حوار بين الطرفين لما كان انتهى إلى غير الصدام » ثم يقول هيكل فى الصفحة نفسها ، ولوحدث حوار بين الثورة والعمال « لما كان للصدام أن يحصل » .

---

(١) كلمتى للتاريخ لمحمد نجيب ، ثم بصراحه عن هيكل لكرم شلبى .

وحرنا فى أمر هيكل وهو يحلل ويخرّج ويفلسف جريمة إعدام العاملين فى كفر الدوار (١) .

ثم هو — أى الرئيس الراحل — يسارى واضح الميول حين قام بالإصلاح الزراعى وأصدر القوانين لصالح العمال ، وحين سجن الإخوان المسلمين وأطلق الرصاص عليهم فى أكثر من موقع ومكان ...

وهو لا إلى اليمين ولا إلى اليسار ، وآية ذلك أن السجون والمعتقلات قد ضمت سبعين ألفاً فى فترة ما ، وكان من بين نزلائها زعماء الإخوان المسلمين وزعماء الشيوعيين على السواء ! ...

وحين وصل العسكريون إلى الحكم بوزارة محمد نجيب ، تسلل إليه عبد الناصر بوصفه زعيم تشكيل الضباط الأحرار وأصبح نائباً لرئيس الوزراء ثم رئيساً للوزراء ...

ثم اختلف مع محمد نجيب الذى كان يرى رجوع الجيش إلى ثكناته وإعادة الحياة الدستورية والسماح للأحزاب بممارسة نشاطها من جديد .

ورأى عبد الناصر أن تحقيق رغبة نجيب تعنى أن الثورة قد صفيت وأن أحلامه قد تبخرت ، وأن كل ما خطط له ورسم قد ذهب هباء ...

لذلك جمع مجلس الثورة وأقال محمد نجيب ، ولم يعده إلى مناصبه إلا لغرض فى نفس يعقوب ، فهو لم يهتز للجماهير الثائرة ، ولا للمظاهرات الهادرة ، بدليل أنه أطلق الرصاص عليها وسالت دماء المواطنين ، غير أنه لقى معارضة فى الجيش لإقالة محمد نجيب ، وعرف أن الظروف لا تسعفه

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ٥٦ وتجد هذا التناقض فى الفقرة الأولى من الصفحة وفى الفقرة الأخيرة منها .

فى كبت التمرد بالرصاص كما فعل مع المدنيين ، لأن الغاضبين فى الجيش معهم أيضاً ذخيرة ضخمة من الرصاص قادرة على حسم الموقف لصالح عدوه الكبير ؟

وبصره ذكاؤه إلى الحل السليم ، فرد إلى محمد نجيب كل سلطاته ووافقه على صدور قرارات مارس على النحو الذى كان يريده . وذلك حتى يتمالك أنفاسه ويتعرف فى مهل على الجيوب التى تساندها فى الجيش فيصفيها فى هدوء ودون تلاحم أو سفك دماء .

فماذا يعمل الراحل النابه الداهية لتصفية الجيوب والقضاء على الدستور والحريات ؟

دخل كثير من البوليس الحربى فى ملابس مدنية ، وبذرت مئات الألوف من الجنيهات — وقيل ملايين — لشراء ذمم بعض العمال والمرتزقة وسارت منهم مظاهرة بترتيب من الضابطين طعيمة والطحاوى تشق شوارع القاهرة وتهتف ...

تسقط الحرية ... ويسقط السنهورى الجاهل ؟ ...

أى والله سمعتهم بأذنى ورأيتهم بعينى يهتفون بسقوط الحرية ، وبسقوط عالم مصر الذى نعتوه بالجهل والغباء ...

وسار فريق من المتظاهرين بقيادة صلاح سالم إلى مبنى مجلس الدولة ليقتلوا رئيسه السنهورى الذى زعموا أنه انحاز إلى قرارات مارس ، ثم زعموا كذباً أنه فى اجتماع مع الإنجليز ... ضربوه بالعصى وانهالوا عليه باللكمات حتى وقع أرضاً مغشياً عليه ، ثم نقلوه إلى المستشفى ليعالج من الكدمات والضربات .

وذهب إليه الرئيس الراحل مع بعض من صحبه فى المساء ليعوده ويطمئن عليه ، فرفض السنهورى أن يقابل ضاربيه …

ثم أعلن إضراب السكك الحديدية وسائر المواصلات ، احتجاجاً على عودة الحرية إلى مصر ورجوع الجيش إلى الثكنات ؟ ! …

ولم يكن بد من عودة مجلس الثورة — من غير نجيب — إلى الانعقاد ليعلن على الملأ أن إرادة المصريين نادت بوأد الحرية وإلغاء الدستور والأحزاب ، والإبقاء على ضباط الثورة فى مراكزهم يسوسون أمور البلاد …

وهزم نجيب وانزوى ، وجرد عملياً من كل وظائفه ، ولم يعد اسمه يذكر فى صحف أو إذاعات …

ثم تقرر عزل نجيب بعد حادث المنشية (١) إذ لم يعد للرجل أنصار فى الجيش ، ولم يكن أنصاره إلا هذا الشعب الأعزل من السلاح ، ولا أمل خلال تلك الفترة الدموية العصيبة فى نجاح أى انتفاضة بلا سلاح …

وهكذا أكل ابن الثورة البكر أكبر الأطباق ! …

ثم رقى القائد العام ، يده اليمنى ، إلى رتبة المشير …

ثم أنشأ فى الجيش تشكيلاً يدين له بالطاعة والولاء …

ثم أخذ يسوس الأمور بسلطانه الجديد دون الرجوع إلى رفاقه أعضاء مجلس الثورة ، وبذلك لم يعد فى حاجة إلى سند من هؤلاء الرفاق .

وانتهى قرار هؤلاء الرفاق إلى الانسحاب من الميدان ، وتسليم السلطة

---

(١) كان هناك اجتماع عام بميدان المنشية بالإسكندرية وأطلق عضو من الإخوان المسلمين الرصاص على عبد الناصر وهو يخطب فأخطأه وانتهز مجلس الثورة هذا الحادث وأطاح بمحمد نجيب.

إلى يد زعيم التشكيل وخاصة بعد أن انتخب رئيساً للجمهورية ، فاجتمعوا وبايعوه على حكم مطلق يتصرف فيه على ما يهوى ويشاء ، واعتكف منهم جمال سالم وخرج من معترك الحياة نتيجة مرض عضال ، وفرح معظمهم بمنصب الوزير أو رئاسة المؤسسات أو بالإشراف على الصحف والمجلات .

وانتقال القيادة الجماعية إلى سلطان الفرد أنهت نصيب ضباط الثورة في أي مظهر من مظاهر السلطان المؤثر فى مجريات الأمور ، لأنهم أصبحوا وزراء أو رؤساء مؤسسات ، وأصبح إقصاؤهم نهائيـًا عن ميدان الحياة العامة أمراً يسيراً على الرئيس جمال عبد الناصر ، فرأينا كيف كان الوزراء يعينون ويعزلون بقرار ، يستوى فى ذلك وزراء كانوا أعضاء فى مجلس الثورة ووزراء لم يكن لهم فى تاريخها نصيب .

وكان هناك أربعة نواب لرئيس الجمهورية ، منهم نائب أول للرئيس هو المشير عبد الحكيم عامر ، وهذا قضت عليه هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ وحملوه عارها وشنارها ، فاستقال مع الرئيس عبد الناصر حين استقال ، بيد أن الرئيس عاد إلى مناصبه جميعاً وبقى المشير فى الطريق العام ، وحين أراد أن يرتب لعودته بالقوة ، قرأنا نعيه فى الصحف ، وقيل لنا إنه انتحر . ولم ينتحر الرجل لهزيمته كقائد كما يفعل الشجعان من القواد ، بل انتحر حين قبض عليه وهو يرتب لانقلاب ...

وأبعد الثانى بعد الهزيمة بشهور ، وله شهرة طائرة فى إطلاق الرصاص على الإخوان المسلمين جماعات وهم عزل وراء القضبان ، وله كذلك سجل حافل فى استيراد أدوات التعذيب من أى مكان ...

وبقى الثالث ساكتاً لا ينطق ، بالرغم من إهانات الرئيس له ، وكان

آخرها فى اجتماع الرؤساء قبل وفاة الرئيس بيوم أو ساعات ، وكادت أن تقتله آخر الإهانات فوقع مغشياً عليه ، ونقل إلى حجرة مجاورة حتى أفاق ؟؟ ...

وأما الرابع الذكي النبيه ، فقد عالج موقفه من الرئيس بلباقة الدهاة ، وكان من حظ مصر أن بقى هذا الرجل فى منصبه نائباً للرئيس ، وورثه تركة مثقلة تنوء بحملها الجبال ، وكان الرجل أقوى من الجبال ...

مالكم وفرعون !

هكذا سمى السيد كمال الدين حسين صديقه وزميل جهاده ورفيق سلاحه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، سماه فرعوناً وهو يسجل شهادته فى إحدى المحاكم مدللاً على أن عبد الناصر كان يحكم مصر كما كان يحكمها فرعون ...

ولست مع السيد كمال الدين حسين فى هذا التشبيه الذى لايتفق مع التاريخ ولا يتسق مع طبيعة العهدين ، عهد عبد الناصر وعهد الفراعين...

ففرعون مصر كان إلهاً أو ابن إله ، فإذا انفرد بسلطان مطلق ، لم يكن هذا السلطان عند قدامى المصريين عملاً إداً أو شيئاً بغيضا ، بل كان حقاً لفرعون رضى به المصريون رضاء المؤمن بآخرته ودنياه .

أما عبد الناصر فبشر ظهر سلطانه المطلق فى جيل حضارى عرف أسرار القمر وطوف بأرجائه ونقلوا فيه القلب من إنسان لإنسان ، وهو جيل لا يمكن أن يسيغ هذا الحكم أو يرضاه ، وإن سكت عنه فسكوت المضطر ، ولا يعتبر صمت الأغلبية العظمى من المصريين على حكم الطغيان منذ انقلاب مارس سنة ١٩٥٤ إلى مايو سنة ١٩٧١ رضاء عن هذا الحكم أو تأييداً له ، وآية ذلك أن عشرات الألوف من المواطنين ثاروا على حكم عبد الناصر ، سواء قبل هزيمة ١٩٦٧ أو بعدها ، ودليل ذلك إفراج السادات عن نحو سبعين ألفاً من معارضى حكم عبد الناصر الذين كانوا ينزلون المعتقلات والسجون ...

وحكم فرعون لم يتسم بمثل ما عاناه جيلنا من فقر وجوع ، إذ كان

فرعون يوزع على المصريين بالعدل والمساواة حصاد الأرض من قمح وشعير وغير ذلك من حاجات الحياة ، وباعتباره إلهاً أو ابن إله كان ينصف الضعيف من القوى، ولا يحتاج لتدعيم سلطانه إلى هذا الجيش الكبير الذى رأيناه فى دولة المباحث والمخابرات .

ثم إن فرعون على جلال مقامه وواسع سلطانه ، كان ينصت إلى أفكار معاونيه ، ويأخذ برأيهم ، ويستشيرهم فى الأمور التى تمس حياة شعبه وتتصل بأمجاد بلاده .

هكذا قال التاريخ وأيده القرآن الكريم فى أكثر من سورة وآية ...

وحتى فرعون موسى ، وهو أعتى الفراعين ، كان يستشير ويستشار .

وكان فرعون يحارب وينتصر ...

وكان الفراعين منذ عهد مينا يقررون الحقيقة حين يحاربون ، وينقشونها على المعابد بالصور والرسوم ، ولم يشذ عنهم إلا رمسيس الثانى الذى انتصر فى حروب وانهزم فى حروب ، وكان كذاباً أشراً حين ادعى لنفسه النصر فى كل الحروب ...

ولم يكن الفراعين فى حاجة إلى هذا الجيش من الصحفيين والإذاعيين لينشروا بين الناس كل هذا الكذب عن انتصارات مزعومة فى الحروب وفى ميادين الإصلاح الداخلى ، وليناففوا لتزييف التاريخ تزييفاً مبدعاً ومفجعاً فاق كل ألوان التزييف التى رتب لها وأبدع فى إخراجها جوبلز رب الدعاية فى النصف الأول من القرن العشرين ، وإن كانت دعاوى جوبلز قد ساندتها النازية بما حققت فعلاً من انتصارات فى الداخل ، وانتصارات مذهلة فى ساحة الوغى إبان الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك

فقد كانت نهاية هتلر زعيم النازية معروفة منذ قام حزبه على الظلم والكبت والإرهاب .

وغسلنا بكذبنا ونفاقنا أمخاخ جيل بأسره حتى اعتقد أننا تحولنا اجتماعياً وأصبحنا اشتراكيين ، لكل مواطن فى خير بلاده نصيب ؛ وحتى اعتقد أننا انتصرنا فى حرب السويس سنة ١٩٥٦ واعتقد فى براءة الأغرار أن الحرب فى سنة ١٩٦٧ كانت لصالحنا ما دام الرئيس فى موقعه لم يخلعه الأعداء وما دام النظام باقياً لم يصب بأى ضعف أو هوان .

وتسقط مصر ... ويحيا الرئيس ويحيا النظام ...

وكان الفراعنة يؤمنون ببعث وآخرة ، فبنوا أهراماتهم وقبورهم ، واحتفظوا فيها بحاجات الدنيا ، فهم ذاهبون إلى عالم آخر ، بيد أنهم يوماً ما سيبعثون ...

وقال لنا هيكل فى كتاب له باللغة الإنجليزية إن الرئيس جادله فى الدين قبل رحيله بأيام ، وإنه ، أى الرئيس ، كان يرى أن الموت نهاية ليس بعدها ثواب أو عقاب ، وإننا نموت ولا آخرة ، وننتهى ولا بعث ، وهو رأى يكفره المسلمون بل تكفره جميع الأديان ، وحتى الفراعنة ، وإن لم يكن لهم نبى يبصرهم بقضايا الموت والحياة ، لم يفتهم أن الإنسان يموت ، وأن الموت حق ، وأن الناس سوف يبعثون !

وفى عهد الفراعنة كان المهندسون والكيميائيون والأطباء والحكماء ، ورجال الدين ، وكبار القواد ، وغيرهم من الصفوة يستمتعون بحظوة ملحوظة ، ويجدون الأمان والطمأنينة فى حياتهم الخاصة والعامة ، ويلقون من فرعون كل صنوف الرعاية ، ويحاطون فى كل مكان بالتوقير والتكريم .

وفى عهد الرئيس عبد الناصر كان مصير كل هؤلاء غير مصير أجدادهم رعايا الفراعين ...

منهم من هاجر إلى أوروبا أو استراليا أو الأمريكتين لينجو من عذاب الإرهاب والتحقير ، وأصبح علماً فى البلد الذى هاجر إليه ، بل أصبح بعضهم أعلاماً عالميين ...

ومنهم ، كما هو معلوم ، من نزل السجون والمعتقلات ، ولقى فيهما شيئاً لا يقل هولاً عما ينتظره الكفرة والملحدون يوم تنصب الموازين.

ومنهم من قبل المهانة ورضى الهوان ، ونافق أحياناً ، إن لم يكن حفاظاً على لقمة العيش وحماية لأولاده من التشريد ، فدرءاً لما قد يحيق به من عذاب كما حاق بغيره من الزملاء الساخطين ...

وفى عهود الفراعنة كانت مصر أم الدنيا ، وكانت بلداً متفتحاً يأخذ الناس عنه العلوم والمعارف ، ويتأثرون أساليبه حين يتناولون حياتهم الخاصة من صدق فى المعاملة وأدب فى السلوك .

وكان المصريون يزهون على الجيران وسائر دول العالم بما يحققه لهم فرعون من عزة وكرامة بانتصاراته الحربية فى كل مكان ، وبما ييسره لهم من حياة رضية ، ومجتمع هو قمة فى حضارة ذلك الزمان .

ولكن الحقد الطبقى فى جيلنا سيطر على نفسية الحاكم ، فحُرم المصريون كثيراً من متع الحياة حتى قيل عن الضروريات إنها كماليات ... ولم يستمتع بحياة الترف والأبهة إلا الحاكم ومن يجرى فى فلكه من حرافيش الناس ...

ولعلنا لم ننس بعد تلك الحكايات التى برزت فجأة بعد قصة خزانة الرئيس التى سرقوا منها أشياء بعد وفاته بشهور ، وعلمنا إذ ذاك كيف كان سامى شرف سكرتير عبد الناصر وغيره من طغمة الرئاسة يستوردون ثياب العرس « وجهاز » العرائس والمطابخ والثلاجات الكهربية والسيارات « واللنشات » وغيرها من متع الحياة مما لم تسمع به أذن ولم تره عين ، وكان

كل ذلك يدخل مصر بلا جمارك ، ويسدد ثمنه من أموال قوى الشعب العاملة التى سرقوها وعوضوها خطباً ومقالات وشعارات !

وفى ذلك العهد السعيد هزم جيشنا بغدر القيادة وخيانتها ، ووضع الخونة أنوفنا فى الرغام ، حتى كان المصريون بعد هزيمة ١٩٦٧ ينكرون مصريتهم إن اضطروا إلى سفر خارج البلاد ، ويزعمون لمن يسألهم عن جنسيتهم أنهم أسبان ! ...

هذه مقارنة سريعة لفرعون جيلنا ، وفرعون تلك الأيام . وهى مقارنة كنت أحب أن يذكرها السيد كمال الدين حسين وهو يدلى بشهادته فى غرفة المشورة ، وهى شهادة لها وزنها من شريك فى المسؤولية ، إذا خلع لقباً على صاحبه كان عليه أن يحسن الخيار فى الألقاب ! ...

وسوف يضيق من هذه المقارنة ، ومن سائر فصول هذا الكتاب بعض الذين نالوا الخير كل الخير فى التجربة الناصرية ، وبالرغم من أننا فى يقينهم موتورون ، إلا أننا لا نكتب مانكتب إلا نقلاً عما تحت يدنا من وثائق وأسانيد ، وتتمثل هذه الوثائق والأسانيد فيما يتحدث عنه العالم ، صحافته وصحافتنا ، كتبه وكتبنا ، وهى جميعاً تسجل وتروى ما نال أحرار مصر ومفكريها من عذاب أيام الحكم الناصرى ، وتتمثل أيضاً فيما قدمه لنا الناصريون من مقالات وكتب ، زعموا فيها أننا افترينا على الرئيس الراحل فيما نشر لنا من كتب ومقالات .

والحق إننا وصفنا عهده بأخف مما وصفوه هم أنفسهم حين تناولوا هذا العهد بالسرد والتحليل ...

لقد أصدر أحدهم كتاباً منذ شهر أو شهرين سماه « عبد الناصر المفترى عليه » تقليداً للأيوبى الذى أصدر كتاباً زلفى إلى الملك فؤاد بن اسماعيل ، سماه « إسماعيل المفترى عليه » !

وما أروع المعانى حين تتداعى ! فكلا الرجلين له فى مصر تاريخ وأى تاريخ . وأبرز ما فى هذا التداعى أن إسماعيل فتح قناة السويس واستدان نحو خمسين مليون جنيه . وعبد الناصر أغلق قناة السويس واستدان عشرة آلاف مليون جنيه ؟ ! ...

وقد ادعى المؤلف أننا افترينا على عبد الناصر فيما صدر عنا ، لذلك يعلن فى مقدمة كتابه « بكل وضوح أننى أدافع بحماس شديد عن عبد الناصر ضد خصومه من اليمين المصرى والعربى » .

فماذا جاء فى دفاع الفتى شديد الحماسة لعبد الناصر ؟

ذكر فى مقدمة كتيبه يصف نظام الرئيس الراحل فى معرض الحديث عما قام به الرئيس من إجراءات اشتراكية وتحولات اجتماعية عظيمة « ولكنه قام بتسليم الإشراف عليها إلى بعض العناصر التافهة والانتهازية والبيروقراطية » .

ثم يقول لا فُضّ فوه « اكتشفنا أن الكثير من العناصر التى تقود الثورة المضادة والتى تحاول تفتيت وبيع القطاع العام . وإلغاء الإصلاح الزراعى هى نفسها التى كانت تدافع عن ناصر والتى مكن لها من البقاء ، وهذا دليل على وجود خلل خطير فى نظامه يجعل من وجود الانتهازيين والعناصر المعادية قاعدة عامة » .

ونحن لم نزعم قط أن الرئيس عبد الناصر كان ساذجاً حتى يسمح لخصوم أمجاده أن يكونوا دعامات وجوده والمدافعين عنه ؟ !

ثم يقول المؤلف ، أكثر الله من أمثاله ، فى فصل من كتابه « ... فقد اكتسب حكمه طابعاً فردياً بارزاً ، وازداد دور أجهزة الأمن وأجهزة الدولة البيروقراطية والمعادية بحكم طبيعتها للجماهير » .

وإذن ، فنحن والنصير الناصرى متفقان ! ...

ثم يستطرد الكاتب الذى أصدر كتاباً ليدافع بحماس شديد عن عبد الناصر ضد خصومه ، يستطرد قائلاً إن عبد الناصر كان يفتقد التنظيم الحزبى الذى يحميه ويبصره ، وكان يقاوم فكرة هذا التنظيم بشدة « ... إن هذا العداء للعمل السياسى المنظم ولدور الجماهير والأحزاب قد أصبح أحد أسس النظام بحيث أصبحت ملازمة له ، ولقد أدى ذلك إلى نتائج مؤلمة على النطاق المحلى ثم أدى إلى نتائج مفجعة على النطاق العربى كذلك » .

ويدلل على النتائج المفجعة فى النطاق العربى ، بأن الرئيس الراحل اشترط لقيام الوحدة مع سوريا حل حزب البعث « ولم يطالب بحل الحزب لتكوين تنظيم حزبى جديد أكثر قوة وفعالية وإنما استبدل الحزب بتنظيم رجعى وانتهازى هو الاتحاد القومى » .

ويزيدنا المؤلف بياناً عن فساد الحكم فى عهد الزعيم الذى نذر نفسه للدفاع عنه فيقول « افتقدت البلاد أى مظهر من مظاهر الديمقراطية . وهذه بدورها أدت إلى نمو مراكز قوى وسيطرة عناصر وشخصيات هزيلة وتافهة على كثير من المراكز الحساسة وكل مؤهلاتها الولاء المطلق للشخص وليس الإيمان بموقف سياسى واجتماعى » .

ثم يمضى المؤلف ، حفظه الله ورعاه فيقول«إن كل نكسة يصاب بها هذا النظام تكون نتيجتها « المنطقية هى زيادة القبضة البوليسية ، وبالإضافة إلى الطابع العسكرى للنظام ، والنشأة العسكرية التى تنفر من العمل الشعبى ، فقد كان هناك إصرار على إبعاد الجماهير كلية عن المشاركة فى العمل السياسى ، وعدم السماح لها بأى دور ، بل واستعمال القسوة المبالغ فيها إذا رأى إرهاصات تبشر بذلك » .

ثم يقول فى خلال فقرات من النقد اللاذع للإخوان المسلمين « وأنا أستنكر التعذيب الوحشى الذى حاق بهم كبشر يجب آن تصان آدميتهم » .

هذا ملخص قصير لفقرات كثيرة من كتاب يرد على من افتروا على عبد الناصر ؟! ...

ولست أدرى هل زاد « المفترون » حرفاً عما قيل به هذا الناصرى ، سياسة الرئيس الراحل وأسلوبه فى حكم البلاد ؟

لعل « المفترين » كانوا أرحم بعبد الناصر وهم يسجلون ما أصاب مصر والمصريين فى عهده من عناء!...

وقد اكتفينا بهذا القدر من الصورة التى قدمها « الصديق الجاهل » عن عبد الناصر كفرعون فى مفهوم صديقه وزميله كمال الدين حسين ، وكدكتاتور فى مفهوم العصر الحديث ...

وتعقيباً على المعنى الذى ذهب إليه كمال الدين حسين وهو يصور صديقه فرعوناً ، نذكر أن القضية التى شهد فيها كانت تتصل بقرار تأليف محكمة الدجوى المشهورة وعدم دستورية هذه المحكمة لأن قراراً من مجلس الرئاسة لم يصدر بتكوينها .

ورأيى أن من علامات الدكتاتورية الناصرية أو الفرعونية الحديثة كان تأليف مجلس الرئاسة ذاك ، فهو نفسه غير دستورى ، لأنه صادر ممن لا يملك حق تكوينه كأعلى سلطة تدير شئون البلاد ، وكان ينبغى أن يستفتى الشعب فى تكوينه وفى اختيار أعضائه استفتاءاً حراً ، وكان هذا أمراً بعيد الاحتمال ، لأن من طبع عبد الناصر ألا يعود فى الرأى لأحد ، وربما كان يستفتى فى بعض الأمور هيكلاً لما كان بين الرجلين من تجاوب ومودة وصفاء ...

لقد تنصل معظم أعضاء مجلس الثورة من سلبيات عبد الناصر إلا ذلك

الرجل الشجاع أنور السادات ، فقد أعلن فى شتى المناسبات أن له نصيباً فى هذه السلبيات .

ومع ذلك فإن أعضاء مجلس الثورة ذاك ، قد باركوا جميعاً ومن غير استثناء خطى عبد الناصر وهو يصعد درج الهرم ليعلن من فوق قمته عودة فرعون إلى الميدان ..

وكان بعض فراعنة مجلس الثورة مسؤولين عن الكوارث التى حلت ببلادنا مسؤولية زميل السلاح والكفاح الذى جرّحوه بعد أن مات ، ولم نسمع منهم كلمة سوء عنه فى حياته ، صياحاً ، أو حتى فى صوت خفيض كأنه الهمسات !..

لقد هيأوا للرئيس الراحل سلطاناً يزرى بسلطان فرعون حتى انفرد بالرأى ولم يعد يستشير أحداً فى قرار ...

لقد صدر قرار تأميم قناة السويس ، ولم يعد فيه إلى مؤسساته الدستورية أو مجلس الوزراء ...

وتورط فى الكونغو دون أن يعود إلى أحد فيما اتخذ من قرار ...

ودخل حرب اليمن ، وخسرنا عشرات الألوف من زهرة شبابنا : قتلى وجرحى ، ونحو ألف مليون جنيه إسترلينى ، ثم خرجنا من اليمن مثخنى الجراح بعد اجتماع الخرطوم ، ولم يعرف أقرب المقربين إليه شيئاً عن تورطنا فى شؤون هذه البلاد ، وفوجىء الشعب ومجلس الأمة والاتحاد الاشتراكى بما اتخذ الرئيس من قرار ..

وهو — باعترافه — المسئول عن هزيمة سنة ١٩٦٧ وما جرته علينا هذه الهزيمة من كوارث لا نزال نجتر إلى اليوم علقمها ، وكان وحده صاحب القرار !...

وقس على هذه الأمثلة فى شؤون الداخل والخارج ألف مثال ...

ولا علينا من صفيه الأستاذ حسنين هيكل وهو يدافع عن دكتاتورية صديقه الرئيس . فيزعم أنه شيء فريد ، لا هو بالدكتاتور ، ولا هو بالديمقراطى ، بل هو نمط جديد بين أنماط الحكام ؟! ...

ويفسر هيكل السبب الذى حمل جمال عبد الناصر على إهماله المؤسسات الدستورية والديمقراطية فيقول : « إن عبد الناصر كانت لديه القدرة على تحسس الإرادة الشعبية ، وكان فى القرارات التى يتخذها متحملاً المسؤولية الكاملة يعبر بالفعل عن تلك الإرادة الشعبية » (١) .

إن عبد الناصر قد تجسدت فيه الإرادة الشعبية ، وإذن فلا داعى لأنه يشرك أحداً معه فى قرار ...

أسئلة قليلة للكاتب النابه الزميل هيكل ...

هل كانت الإرادة الشعبية راضية عن التدخل فى الكونغو واليمن ؟

هل كانت الإرادة الشعبية سعيدة بتوريط مصر فى حربين مع إسرائيل خرجت منهما تنزف دماً وعارا ؟

هل كانت الإرادة الشعبية تصفق له وهو يشرد عشرات الألوف من بيوتهم وأعمالهم وحوانيتهم وشركاتهم ؟

هل كانت الإرادة الشعبية سعيدة وهو يسجن ويعتقل عشرات الألوف من الأحرار . ويعذب أصحاب الأقلام والأفكار ، يصلبهم على الحوائط ، وينتف الشعر من كل موقع ينبت فيه الشعر من أجسامهم ثم ينفخ بطونهم مرة ويطلق زبانيته كلابهم عليهم مرة أخرى تمزق لا ثيابهم بل أجسادهم ، ثم تنتزع أظافرهم ورموشهم ، وتخم جرائمها التى يدللونها ويسمونها اليوم

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ٩٥ .

سلبيات ، بالفسق فى حرائرهم أمام رجالهم وأولادهم دون حياء من خلق أو خشية من إله ؟ ...

هل أوحت الإرادة الشعبية برفت آلاف الموظفين بدون تحقيق ، وفصل القضاة جميعاً للتخلص من أعلام العدالة الذين أبوا أن يحملوا القماقم ويجروا فى الركاب ، ورفضوا أن يطوعوا القانون لنزوات الحكام ، وحرصوا على كرامة المهنة من أن تصاب بالعار كما أصيبت سائر الفئات ؟

هل كانت الإرادة الشعبية مرحبة بكل هذا الفساد فى التعيينات والترقيات من درجة وزير إلى رئيس مؤسسة إلى مدير شركة حتى تدرج الفساد نازلاً إلى الحراس والخفراء ؟

هل صفقت الإرادة الشعبية لتزييف إرادتها فى الاستفتاء على الرئاسة أو المواثيق أو البيانات أو انتخابات الاتحاد الاشتراكى ، أو اختيار أعضاء المؤسسات الدستورية الأخرى التى أنشئت للزينة والفخار ، وهى فى الحق بؤر للفساد ؟

هل أوصت الإرادة الشعبية بأن تخاصم مصر معظم شقيقاتها العربيات ، وتدير معهم معارك بالسلاح وباللسان ، فى الوقت الذى يؤكد زميلنا هيكل بأن الرئيس عبد الناصر جاء وحياً من السماء لتتجسد فيه الوحدة العربية ويعيد مجد صلاح الدين فى لم الشمل وتعبئة الروح ضد العدو الصهيونى ، وفى جميع الجبهات ؟

هل رحبت الإرادة الشعبية بما سلم به الرئيس للروس حين دعاهم إلى مفاوضة الأمريكان للبحث عن مخرج لمصر بعد هزيمة ١٩٦٧ وأعطاهم

تفويضاً على بياض ، وطلب منهم ألا يرجعوا إليه فى أى قرار يتخذونه فى مصيرنا ، ولو كان قراراً يخجل ويشين ؟

ما لكم وفرعون ...

لقد كان فى مصر دكتاتور يحكم ، ولم يكن فيها فرعون ، فإن لفرعون ميزات وحسنات ؟! ...

جرائم لا سلبيات

بعض الناس يسمى الجرائم التى ارتكبت فى حق المواطنين سلبيات يحسن أن نغفلها وعفا الله عما سلف ، ما دام الرئيس السادات قد عالجها ومسح دموع الأيامى واليتامى الذين قتل آباؤهم واستشهدوا ، أو فصلوا وشردوا ! ...

إن كثيراً مما حدث فى مصر خلال حكم الرئيس جمال عبد الناصر ليس فى حاجة إلى وثائق نعود إليها بعد خمسين سنة ، فهو مكشوف ومعروف يعلن عن نفسه وليس سراً من أسرار الثورة التى اعتبرناها ثورتنا جميعاً ، وأرادت فئة قليلة شريرة أن تحتكرها لنفسها ،وترتع فى خيراتها وتستعبد باسمها أحرار البلاد من ضباط ومدنيين جلت أقدارهم أو هانت موازينهم .

لقد محا الرئيس السادات آثار الجرائم التى ارتكبتها لجان التطهير ومحكمة الثورة ومحكمة الغدر انتهاء بمحكمة الدجوى تلميذ المهداوى فى العراق ، وأصبحت ذكرى هذه اللجان والمحاكم تثير السخرية والتندر والاستهزاء ..

نريد أن نعلم صحة الإشاعات التى لا تكف الألسنة عن ذكرها والتعليق عليها ...

هل صحيح أن فى صحراء مدينة نصر كشف عمال البناء عشرات أو مئات الجثث مدفونة فى الرمل بأزيائها المختلفة ، ممثلة لقوى الشعب العاملة من عمال وفلاحين ومثقفين ؟

وإذا صح هذا فمن ذا الذى دفنهم ؟

وهذا الذى دفنهم ، هل عوقب وأعدم وصودرت أملاكه ؟ أو لا يزال يرتع فى خير منهوب أو مال مسروق والدم يقطر من يديه إعلاناً بأن الطغيان سيد لا يهان ؟ ...

أما الذين أهانوا المواطنين وعذبوهم وأهدروا آدميتهم فليس هناك شك فى ارتكابهم هذه الجرائم ، فإن حكم المحكمة الذى أصدرته فى قضية المستشار على جريشة قد قطع الشك باليقين .

ماذا حدث مع مستشار ؟

قالت المحكمة: « عذبوه بوحشية ، فأوسعوه ضرباً حتى شوهوا وجهه واختلطت معالمه واختفت ملامحه حتى عز على جاره وصديقه التعرف عليه إلا بعد التفرس فيه وإطالة النظر إليه ... مزقوا جسده بالسياط حتى أثخنوه جراحاً ... أسالوا دمه حتى استحال قيحاً وصديداً ... أذلوه حساً ومعنى حتى أعجزوه من أن يقف على قدميه وأرغموه على أن يزحف على أربع ، وكان غاية الخزء والازدراء والتفنن فى القسوة والتعذيب وإلحاق الإهانة والهوان به أن يطلبوا منه أن ينبح كالكلاب . علقوا جسده وألهبوه بالسياط وقذفوه بأقذع وأفحش ألفاظ السباب » .

فعل زبانية السجن الحربى هذا فى قاض ، ولنتخيل ما يمكن أن يصنع فى غير القضاة !

وشهد شاهد بأنه دعى إلى السجن الحربى لسؤاله ، ودخل إلى «باستيل مصر الرهيب » كما سماه المعتقلون « فإذ به يفاجأ وكأنه على معركة والجثث داخل السجن ملقاة على الأرض الملوثة بالدماء ، وأنه يكاد يكون قد وطأ بعض هذه الجثث ، وإذ به وسط صراخ وأنين ونباح كلاب ، واقتادوه إلى غرفة عمليات السجن وهى غرفة مفتحة الأبواب وقد علق فيها البشر

كالذبائح ، وقد تولى كل ذبيحة أربعة يلهبونها بالسياط ، والمعذبون يستجيرون بالله سبحانه وتعالى ، وكلما تمزقت السياط فى أيديهم أبدلوها بغيرها جديدة ، ثم أدخلوه غرفة يمثلون فيها بالجثث » .

وقرر الشاهد « أن الاعتداء على المستشار على جريشة وقع أمامه وفى حضور العميد سعد زغلول وحسن خليل وحسين كفافى . وأن أشخاصاً من العسكريين كانوا ينهالون بالضرب بأيديهم وأرجلهم على المدعى (يقصد المستشار جريشة) وكلما وقع إعياءً رفعوه ليضربوه وهم يسبونه بألفاظ يعف اللسان عن ذكرها » .

ويسجل الحكم صورة مروعة لحالة المستشار جريشة . فقد طلبوا منه أن ينزل من زنزانته (للتمام) وقال الشاهد يصف نزول جريشة للتمام « إنه شاهد شخصاً ينزل زاحفاً على أربع ، ركبتيه وكوعيه وهو يصرخ ويئن أثناء نزوله سلالم السجن الحربى الخرسانية المرهقة للشخص السليم العادى ... » ثم يقول الشاهد إنه بعد التمام بتسجيل الأسماء « صعد نزيل الزنزانة ٤٩ (يقصد جريشة) بنفس الطريقة التى نزل بها زاحفاً على أربع »

كان القصد من تعذيب جريشة بهذه الصورة التى لم تعرفها حتى العصور الوسطى ، إلقاء الرعب فى قلوب سائر المعتقلين وكان الضباط الزبانية يقولون لهم ، إننا نفعل كل هذا بقاضٍ فما بالكم أنتم إذا أردنا تعذيبكم ؟!

وكان الدكتور رمزى استينو الشاهد الأول فى قضية المستشار على جريشة ، وكان يشغل وقت القبض على جريشة منصب نائب رئيس الوزراء لشئون التموين ، وقد شهد بأن العهد « كان عهد إرهاب ومعتقلات وتعذيب بالسجن الحربى وثكنات مصطفى كامل بالإسكندرية ، وكان يقوم على تلفيق التهم للأبرياء » .

ويبدو أن المسؤولين عن الحكم فى ذلك الوقت قد انعقدت نيتهم على قتل جريشة ؛ وفى ذلك سجلت المحكمة على لسان أحد الشهود بأن شمس بدران قال « إن أمراً صدر إليه من الريس بتعذيب جريشة حتى الموت »!...

وقد دمغت المحكمة سلوك الحاكم « بأن التعذيب كان نظام عهد وأسلوب حكم إرهابى كان يهدد كل إنسان حتى نواب رئيس الوزراء » ثم قالت عن أصحابه « إنه عار على من ارتكبه وخزى له فى الدنيا والآخرة »!

وقد بلغت الخسة والدناءة بضباط السجن الحربى فعمدوا إلى تحطيم جريشة وهددوه كما فعلوا بغيره بالاعتداء على عرض قرينته ، وفى ذلك تقول المحكمة « كانت هناك سيدات يعلقونهن ويضربونهن ، وهددوا المدعى (أى جريشة) بإحضار زوجته لتعذيبها والاعتداء على عرضها كما فعلوا مع آخرين أحضروا زوجاتهم وأخواتهم وأصهارهم ومنهم على سبيل المثال الشيخ محمد عبد المقصود الذى أحضروا زوجته وبناته وأزواجهم وزوجات أولاده وكذلك المستشار مأمون الهضيبى الذى أحضروا زوج ابنته وأخواته البنات ووالدته » .

أكاد بعد ذلك أن أصدق ما أسرّ إلىّ به أحد المقربين من الرئيس الراحل سنة ١٩٦٦ فقد قال إن « صفياً » من أصفياء الرئيس جاءه ضابط من المخابرات — وكان ذلك فى مكتب الراوية — يشكو جريمة ارتكبت أمامه وهى أن فلانة بنت أخت المعتقل فلان ، وهى لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها قد أحضروها وفسقوا بها جندياً بعد آخر حتى ماتت ؟!

وذعر « الصفىّ » لهذا النبأ ، وذهب فى سيارة الراوية إلى بيت الرئيس لينهى إليه هذا النبأ الخطير الذى تجرد من إنسانية الإنسان ونقل مصر إلى حياة الغاب ، وإذا الرئيس يقول له « وانت مالك .. هى بنت أختك ؟ »!!

وصدم «الصفىّ» صدمتين ، الأولى أنه لم يكن يعلم أن الرئيس يعلم بكل ما يجرى فى السجون والمعتقلات ... والثانية أنه بنقل النبأ إلى الرئيس فى أسلوب الساخط على الفعل قد شذ عن النقاء الثورى ! الذى يفترض فى صاحبه التجاوب مع النظام وتأييده لكل ما يرتكب من جرائم وآثام .. وعقاب الصابئين أمثاله شديد الوقع على النفس والولد والمال ...

ووقع الرجل عند درج « السلاملك » ونقله الراوية الذى كان فى انتظاره بالسيارة إلى المشفى حيث بقى هناك ثلاثة أشهر يعالجون قلبه ، ولم يسأل عنه الرئيس إلا قبيل خروجه منه بأيام ؟

وخلال الأشهر الثلاثة التى كان يعالج فيها «الصفىّ» نقل ضابط المخابرات الذى روى قصة الفتاة ومصرعها إلى أسوان ثم أحيل إلى المعاش !

إن فن التعذيب ، وقد أصبح التعذيب فنًّا فى العهد الماضى ، قد وضعت له قواعد وأسس يلتزم بها أصحابها ، ويذودون بالطبع عن النظام الذى أبدعها والذى يجب أن يدوم وإلا طارت رقابهم بزواله ...

وقد حدثنا الرئيس السادات فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ بأن رئيساً للوزارة فى عهد الراحل عبد الناصر وهو من أبرز أعضاء مجلس الثورة استورد بعشرات الألوف من الجنيهات أدوات للتعذيب من الخارج .

وأذيع حديث الرئيس فى الراديو ، واستمعنا إليه وهو يرويه عبر التليفزيون ، وقرأناه فى الصحف ، ولم نكن نعلم حتى ذلك الوقت أن للتعذيب أدواته ، فذلك تاريخ قديم لعهود الظلام إبان العصور الوسطى أو فى محاكم التفتيش التى أنشأها الأسبان .

وإذا كان رئيس الوزراء ذاك قد استورد أدوات للتعذيب فلا بد أنه خطط لمزاولتها ودرب زبانيته على استعمالها ، وفى ذلك تروى القصص والحكايات .

منها حكاية المستشار جريشة التى أوصى شمس بدران بتعذيبه حتى الموت ! ومنها تعذيب الشيوعيين والإخوان المسلمين بوسائل مشابهة لما اتبع مع ذلك المستشار ، وزيد عليها تعذيب معنوى لا يحتاج إلى أدوات بل يحتاج إلى جند خصصوا للفسق فى المعتقلين أو فى حرائرهم وعلى مشهد منهم...

ومنها قتل المعتقلين أو دفنهم أحياء فى صحراء مدينة نصر ، ومنها ما عمد إليه الزبانية من استغلال حاجة الزوجات وبناتهن إلى المال بعد أن حرموا عائلهن وحرموا ثروته التى صادروها فراودوهن عن أنفسهن ، ووصلوا مع بعضهن إلى بغيتهم ، وزلت الشريفات واعتدن الزلل ! ...

ولم يكتف الزبانية بذلك ، بل حاربوا من لجأ إلى الخارج فى رزقه ، وطاردوه عند الدولة التى آوته أو استعانت به وكل ذلك تزيداً فى الظلم والعدوان .

ثم ماذا ؟

وبمناسبة اعتراف المسئولين عن المخابرات فى عهد الرئيس الراحل بأن الدولة كانت ترى السم أداة فى أى حوار مع خصومها ، يتساءل الناس كيف قتل الدكتور أنور المفتى أحد أعلام الطب فى مصر ؟

هل صحيح أنه تناول السم دون أن يدرى بعد أن وقع الكشف الطبي على الرئيس الراحل بحضرة جمع من زملائه الأطباء ؟

وهل ناولوه السم لأنه جرأ وحده وأعلن ضرورة إعفاء الرئيس من مسؤولياته لأن المرض يؤثر على تصرفاته بما يضر المصلحة العامة ؟

إذا صح هذا فمن ذا الذى ناوله السم ؟

أعتقد أن الذين دسوا السم للطبيب عصبة مراكز القوى ، لأن تنحية الرئيس المريض ستأتى مكانه برئيس معافى سليم يكشف جرائمهم وفضائحهم

ويحرمهم السلطان المطلق الذى يسوسون به أمور البلاد كضيعة ورثوها عن آبائهم وأمهاتهم ! .

متى يصح الصحيح ويؤخذ المجرمون بجرائمهم ؟

وإذا تركنا هذه الجرائم الخطيرة التى تمس حياة الإنسان وعرضه ، والتى يسمونها سلبيات تدليلاً لها ، كما سموها نكسة تلك الهزيمة الشنعاء ، وهى تسمية تكشف عن وزن صاحبها للنكبات والويلات !

إذا تركنا هذه الجرائم ، فإن هناك جرائم أخرى ارتكبها أصحابها . ولا يزالون يستمتعون بحق المواطن الصالح النظيف كأنهم لم يسرقوا ولم ينهبوا ولم ينصبوا ولم يستغلوا الوظيفة التى شغلوها أو السلطان الذى تبوءوه حتى استشرى الفساد وكاد أن يصبح قاعدة للحياة فى البلاد .

هل حوسب الذين استغلوا صلة النسب بالسيد على صبرى رئيس مجلس الوزراء فى قضية الاستيراد والتصدير ؟

هل نوقشت أسباب الخلاف التى وقعت بين النائب العام المستشار محمد عبد السلام ووزير تموين ذلك الزمان ؟ وهل حوسب هذا الوزير أمام القضاء أو أمام مجلس الشعب فيما وجهه إليه النائب العام من انحرافات ؟

وماذا عن قضية الشركة العقارية المصرية ، وما دور وزير الإصلاح الزراعى فى ذلك العهد العامر بقضايا الفساد ؟

وماذا اتخذ من إجراء فيما حدثنا عنه النائب العام بالوثائق والأسانيد خاصاً بقضية النقل البحرى المتهم فيها عديل وزير المواصلات ؟

وهل سئل محافظ القاهرة الذى أعطى القانون إجازة عما ذكره النائب العام فى كتابه الموثق عن تصرفات المحافظ وكلها خطايا وهنات ؟

وهل حوكم امرؤ من المهربين الذين حمتهم السلطات ؟ وهل صحيح

أن الرئيس الراحل عفا عنهم ورد لهم أموالهم كما حدثنا بذلك كبير فى القصر الجمهورى فى مقال له عن الرئيس بعد وفاته وهو يعدد له الأفضال والحسنات ؟

هذه أسئلة لجرائم نشرها وقصها النائب العام فى كتاب قرأه عشرات الألوف من المواطنين ، فهل تحركت سيادة القانون لمحاسبة هؤلاء المجرمين ونصبت لهم الموازين ووقعت على كل منهم ما يستحق من جزاء حتى يكون عبرة لكل من يفكر فى ظلم الناس أو سلب أموال تحالف قوى الشعب العاملة التى يحكمون ويسيطرون باسمها على مقدرات الناس ؟

وهناك مئات الأسئلة وكل سؤال ينطوى على رواية أو قصة يجب أن يكون لها حساب وعقاب .

سؤال عما نشرته أخبار اليوم فى أغسطس ١٩٧٣ عن ملايين هربت إلى سويسرا ، وقالت الصحيفة إن سفيرنا استطاع أن يحصل على مليونين منها ، وإنه سوف يجاهد عند المسؤولين فى ذلك البلد ليسترد لمصر نحو تسعة ملايين أخرى ، خرجت منها عملة صعبة فى وقت ندرت فيه هذه العملات !

ما أظن اشتراكياً مصرياً من أصحاب الملايين الجدد هو الذى هرب هذه الملايين ، وإلا ذكرت الصحيفة اسمه وفضحت سره واستغلت قصة تهريبه لهذه الملايين لتظهر همة الحكومة فى السعى وراء صالح البلاد !

إنه بلا جدال شخصية كبيرة جداً إذا عرف اسمها تهدم الصرح العالى ، وانهارت الدعوة وصاحبها ، وهربت الفئران من السفينة ، وأسدل الستار على جيل من تاريخ مصر هو أسوأ ما عرفته مصر من أجيال .؟!

إذا لم يكن استنتاجنا صحيحاً فلم حبس عن المواطنين الاسم أو الأسماء التى هربت أموال الشعب ؟ وما الفائدة من نشر الخبر إن لم يكشف سره

وتذاع تفاصيله ؟ وماذا تم فى الملايين الأخرى ؟ هل استردتها البلاد أو لا يزال السفير يجاهد ولا تزال الحكومة تنتظر نتائج هذا الجهاد ؟ ..

لعله سؤال يحول دون الإجابة عنه مقام صاحبه ذو الحصانات والقداسات ؟

وفى كتاب (القضية الكبرى) الذى كتب مقدمته الضابط إبراهيم الطحاوى سكرتير هيئة التحرير وأحد الزعماء الذين قادوا المظاهرات فى مارس ١٩٥٤ تهتف بسقوط الحرية والسنهورى الجاهل احتجاجاً على عودة الدستور والحريات للبلاد . فى إهذا الكتاب يقول مؤلفه « وقد جمعت مجوهرات أسرة محمد على بالأسكندرية فى ٣٧ صندوقاً سعة الصندوق متر واحد مكعب » (١) .

أين هى تلك المجوهرات ؟ ومن الذى جردها وتسلمها ؟ وأين وثائق الجرد والتسليم ؟ هل بيعت لحساب الدولة أو لحساب بعض الأفراد ؟ أو هى لا تزال فى صناديقها محبوسة لم يكشف بعد عنها النقاب ؟

ويجر السؤال سؤالا ...

وأين مجوهرات أسرة محمد على التى جمعت من قصور الأسرة فى القاهرة ؟

لقد جردها واستلمها ثلاثة من الضباط . أعرف منهم اثنين ، واحداً كان زميلى بالمدرسة الخديوية وكم لعبنا معاً كرة الشراب ! ... ويقيم فى بيروت ويعيش حياة مرفهة فهو واحد من أصحاب الملايين هناك . والثانى كان تلميذى فى معهد الصحافة ، وقد باع منذ عهد قريب — كما يقولون — قصراً له بمدينة المهندسين قبض ثمناً له تسعين ألفاً من الجنيهات !

---

(١) أخبار اليوم فى ١٩٧٥/٨/٢ .

أين مجوهرات قصور القاهرة ؟ هل بيعت هى الأخرى لحساب الدولة أو لحساب بعض الأفراد ؟ أو هى لا تزال فى صناديقها حبيسة لم يكشف بعد عنها النقاب ؟

سؤالان لا يحيران الدولة إن هى جدت فى البحث والاستقصاء ، وسوف تجد أن بعض هذه المجوهرات قد بدد ، وعليها أن تسأل أصحاب هذا الثراء الجديد المفاجئ عن مصادر ثرائهم فان أثبتوا أنه إرث من الآباء كان بها ، وإن عجزوا وجب تقديمهم للقضاء ليسترد تحالف قوى الشعب العاملة حقه من لصوص القصور وما فيها من مجوهرات ...

وهناك سؤال يجرى على كل لسان فى النوادى والمقاهى والصالونات . .

قيل إن صائغاً فى إحدى عواصم أوربا دهش حين عرض عليه فتى وسيم غض الإهاب شراء قطعة من الجواهر نادرة المثال ، وكى يتأكد الرجل من الجوهرة عاد إلى أضابيره ، فمثل هذه القطعة من المجوهرات لها حسب ونسب كخيول السباق ، ووجد الصائغ أنه باعها من ثلاثين عاماً لشاه إيران .

واستأذن الرجل من الفتى لحظات ، فقد تأكد أن الجوهرة مسروقة بلا جدال ، واستدعى الشرطة التى أخذت تسأل الفتى من أين جاء بها وهى ملك لإمبراطور إيران .

وتدخلت السفارة المصرية وأنقذت الفتى من السؤال والجواب ...

وكان الشاه قد أهدى هذه الجوهرة لزوجته الأولى الإمبراطورة فوزية شقيقة فاروق وابنة فؤاد ...

وكانت الثورة قد صادرتها فيما صادرت من مجوهرات لا يعرف الشعب أين مصيرها الآن ؟ وإن عرف أن « واسطة » العقد قد سطا عليها إبن رجل مشهور طار صيته كل مطار ؟

هل هذا الخبر صحيح أو هو حديث نواد « وقهوات » ؟

وهذه قصة مماثلة بيد أنها تسمو على الشائعات ...

وُضع المليونير عبود هو وابنته تحت الحراسة . وكان الأب قد أهدى ابنته طاقماً للمائدة من الفضة الأصيلة فى إحدى المناسبات .

وكان الطاقم الرائع النادر يحمل باللاتينية الحرفين الأولين من اسم الإبنة منى عبود M . A وكان هذا الطاقم ضمن أثاث بيتها الذى صادروا كل شىء فيه حتى الأحذية والثياب !..

وفى لندن عرضت طاقم الفضية للبيع سيدة أنيقة كان من غريب المصادفات أن اسمها هى الأخرى يحمل باللاتينية الحرفين الأولين M . A (١)

واشترى الرجل الطاقم الفضى بضعف السعر الذى باع به لعبود منذ سنوات ، فكل شىء ارتفع ثمنه ، والفضة من هذا المقام وهذه الأصالة وعلى هذا الطراز تضاعف سعرها مرات ومرات ...

(١) كان المرحوم أحمد عبود باشا رجلاً عصامياً عمل فى جد فجر شبابه وانتهى إلى أن أصبح الرائد الثانى فى اقتصاد مصر بعد طلعت حرب باشا . وقد مصر كثيراً من الشركات الأجنبية كشركة السكر والبواخر الخديوية وغيرهما من دعامات الاقتصاد المصرى الذى كان فى يد الأجانب إذ ذاك .

ومن عجب أن زميله طلعت حرب زعيم الاقتصاد الرأسمالى فى مصر أقامت له الثورة تمثالاً وأطلقت اسمه على شوارع وميادين بينما اضطهدت عبوداً وصادرت أمواله وأموال بنته ، واضطر الرجل إلى الهجرة ومات فى الغربة ، ولم يكتفوا بذلك بل أطلقوا عليه كلباً مسعوراً فى التليفزيون يندد بنشأته المتواضعة فى حى باب الشعرية ويزعم أنه لم يكن مهندساً ! فأمر عبد الناصر بوقف هذا الهراء قائلاً إنها شهادة لصالح الرجل الذى استطاع أن يبنى كل هذه الأمجاد دون أن يكون مهندساً ؟ وشهادة ضد الثورة التى تحارب رجلاً نشأ من قلب قوى الشعب العاملة فى حى فقير من أحياء القاهرة ...

حدث كل هذا العبود لأنه نصح للرئيس بمفاوضة الانجليز قبل حرب ١٩٥٦ ...

وقصة الطاقم تعرفها لندن ويحكيها المصريون هناك ، ولكن السؤال الخالد لا يزال حائراً ينتظر الجواب ... كيف سطوا على هذا الطاقم وكيف أسقطوه من قائمة المصادرات ؟

ولا أتزيد مما يقوله الناس . فأقوال الناس أكثر من أن تتسع لها صفحات كتاب ...

وبعد أن قرأت كتاب النائب العام المستشار محمد عبد السلام ، رأيتني لا أستبعد معظم ما يرويه الناس ، وعلى الدولة وحدها ، وهى التى تعرف كل الأسرار . وهى المسؤولة عن أموال الشعب ومطاردة الفساد ، عليها أن تجيبنا أحقاً هى إشاعات أم هى حقائق بينات ؟

لو أذن للقانون وهو السيد فى دولة المؤسسات أن يلاحق كل ماذكرناه ، وجده حقائق رويناها ورواها غيرنا ، ويحاسب أصحابها ويأخذ بتلابيبهم ويوقع بهم الجزاء . لجعلنا من هؤلاء اللصوص والمجرمين عبرة لجيل اليوم ولما سوف يأتى بعده من أجيال

تـاريـخ الهـــوى

زميلنا النابة الأستاذ محمد حسنين هيكل صحفى وأديب ، وفى كتاب فؤاد مطر (بصراحة عن عبد الناصر) بدا أيضاً مؤرخاً ومدققاً حين عرض لأحداث التاريخ التى سبقت سنة ١٩٥٢ .

غير أن الأستاذ هيكل صاحب « بصراحة » لم يتسم بالصراحة والدقة فيما أجاب به على مطر بشأن كثير مما يتصل بتاريخ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

ونحن نعلم أن ما جاء فى حديث هيكل عن حياة عبد الناصر الخاصة معظمه صحيح فيما يخصه هو ، أما « أن أحداً من الأولاد لا يملك عقاراً باسمه » فذلك ما تنقضه أحاديث الناس ...

ويقول لنا الناس ، أقرب الناس إلى الأسرة ، إن كريمتيه الفضليين ، تملك كل منهما فيللا فى الشارع الذى يقع خلف حدائق الميريلاند ، ويسميه سكان مصر الجديدة « شارع البرنسات » . ويقع فيه أيضاً قصر السيد على صبرى ، ولست أدرى مَنْ مِنْ علية القوم الاشتراكيين الآخرين يسكن هناك ؟

سموه شارع البرنسات لأنه مقصور على السادة الحكام وأبنائهم وبناتهم ؛ وهى تسمية ساخرة من شعب يعلن عن سخطه دائماً بالسخرية والنكات ...

وليس عندى وصف للفيلتين اللتين تملكهما كريمتا الرئيس الراحل ، وإن كان عندى بيان بروعة القصر الذى يملكه زعيم الشيوعيين فى مصر السيد على صبرى ، وخاصة مطبخه وما يحتوى عليه المطبخ من آلات

وأدوات كهربية لا توجد إلا فى البيت الأبيض وفى بعض بيوت أصحاب الملايين من الأمريكان !..

ويقال إن كريمتى الرئيس عبد الناصر تسكنان اليوم الفيلتين كمستأجرتين لهما بعد أن بيعتا لهيئة من الهيئات ...

وحدثنا هيكل بأن الرئيس رحمه الله أبى أن يتملك شيئاً لأنه كان مسؤولاً عن التحول الاجتماعى فى مصر ، ولم يحدثنا هيكل عن مسؤولية الرئيس فى التحول الأخلاقى الذى أصاب الشعب المصرى ، والذى كانت حصيلته ما رويناه فى فصول سابقة وما سوف نرويه من فصول مقبلة من هذا الكتاب !!...

وبمناسبة ماحدثنا به هيكل عن التقشف الذى تعيشه أسرة عبد الناصر نذكر له ما أخفته عنه الأسرة من حياتها الرخية التى تحياها ، جاهاً ومالا ، فإنها بمقتضى القانون رقم ٧٧ لسنة ١٩٧٠ المنشور بالجريدة الرسمية فى ١٩ أكتوبر ١٩٧٠ قد نزلت الدولة لأسرته عن الدارين اللتين كان يشغلهما عائلها الراحل ، سواء قصر القاهرة أو دار الأسكندرية ، كما تقرر للأسرة معاش يساوى ما كان يتقاضاه الرئيس السابق وهو كما سجل هيكل فى كتاب مطر « ٥٠٠ جنيه شهرياً مضافاً إليه ٢٥٠ جنيه كبدل تمثيل » .

ولا يعلم هيكل أن المعاش وبدل التمثيل معفيان من جميع الضرائب والرسوم ...

ولعله لا يعلم أيضاً أن القانون المذكور أضاف إلى المعاش شيئاً اسمه المخصصات ؟

إن المخصصات تشمل قصر القاهرة وفيلا المعمورة بالأسكندرية ، ونقصر حديثنا على قصر القاهرة الذى نزلت عنه الدولة لأسرته ، ولهذا

القصر تاريخ ، فقد كان فى أول الأمر فيلا صغيرة يقطنها البكباشى جمال عبد الناصر عند قيام الثورة ، فلما ولى شؤون الحكم أضيف إلى الفيلا « ميس » سلاح الإشارة القريب منها ، فأصبحت فيلا كبيرة ، ثم ضم إلى مساحتها الشارع الذى يفصل بين « الميس » وسلاح الإشارة فأصبحت قصراً ، ثم ألحقوا بالقصر مبنى مدرسة سلاح الإشارة ، وبذلك بلغت مساحة القصر كما يقولون ثلاثة وعشرين فداناً ، وأصبح أكبر قصر اشتراكى فى البلاد !

ولهذا القصر مطالب تؤديها الدولة تحت بند « المخصصات » .

للقصر إدارة وسكرتارية ، قيل إن فيها موظفاً فى درجة وزير ! وقيل إن الذى يشترى اللحم والكوسة وسائر الخضار فى درجة مدير عام ! ...

وفى القصر خدم وحشم وحراس من الجند يطوقونه من كل جهة ويمنعون الناس من المرور أمامه أو من خلفه ، وفيه سيارات وسائقون يزودونها يومياً بالزيت والبنزين ...

ويقولون أيضاً إن فى القصر ثلاث غرف للسينما ... وشيئاً لم أصدقه .: مطاراً تحت الأرض ومحطة للإذاعة وهى من أقوى الإذاعات ؟!! ...

وإنه بمقتضى المخصصات تتولى الدولة الإنفاق على كل ذلك .

وإذن فان الأمر لم يقتصر على ثلاثة أرباع الألف من الجنيهات التى تتقاضاها الأسرة شهرياً كما ذكر هيكل فى أسلوب الحزين الذى يتحسر على الفاقة التى تعيش فيها أسرة عبد الناصر بعد رحيل عميدها الكبير ...

ثم أين هذه الأسرة ؟

إن المحروسين ، أنجال الراحل الكريم خمسة ، تزوج أربعة منهم ، ولم يبق مع الوالدة إلا خامسهم ، وقد تخرج الثلاثة فى الجامعات ويشغلون اليوم هم وأزواجهم وظائف هنا وهناك ، ودخول بعضهم يسيل لها لعاب الوزراء !

أما الفتى الخامس فهو مفرق طريق فى تاريخ مصر ...

لقد عقد أواصر النسب من شهور مع أسرة البدراوى ، وبذلك تعانقت الاشتراكية والرأسمالية! والتقت التقدمية مع الرجعية ! ورضى الشعب عن أعداء الشعب ! وانحسر المد الثورى ! وأطل الإقطاع برأسه ، ومد يده ليطبع عليها ابن عبد الناصر قبلة الرضا والحنان ...

وفرحنا لاتفاق النقيضين ، وسمو العلاقات الإنسانية على الخلافات العقائدية ، فربما جاءت آثار الحب بلون وسط فى السلوك وطرائق النظر إلى الحياة ...

سوف يزف الفتى إلى عروسه بعد قليل ، وينتقل من قصر الاشتراكية إلى قصور الإقطاع ! .

إن الشعب لا يضن أبداً على قرينة الرئيس الراحل بكل ما يخفف عنها بلاء الزمن ، وقد حنا الشعب نفسه من قبل على أم المصريين زوج الزعيم الخالد سعد زغلول بعد رحيله ، فقرر لها معاشاً قدره مائة وخمسة وعشرون جنيهاً دون أن يؤثرها بأى مخصصات ، على أن تقطن الدار الصغيرة التى يملكها زوجها وكانت — ولا تزال — تسمى (بيت الأمة) والتى حولت بعد وفاتها إلى متحف يزوره المصريون ليعيشوا لحظات فى أمجاد سعد الذى قاد مصر فى أعتى أيام الاحتلال ، وتحمل فى سبيلها النفى والاعتقال ، آلف بين طوائفها وساس الأمور بالحب ولم يكن يعرف غير الحب سبيلاً إلى قلوب الناس .

أليس من العدل ونحن نجتاز أزمة مالية عصيبة ونجرى وراء الدانق والسحتوت لنوفر الطعام للشعب ، أن تخصص الدولة فيلا مناسبة للسيدة قرينة الرئيس الراحل ، وتوفر بذلك عشرات الألوف من الجنيهات التى تصرف على المخصصات ؟

إن قصر الرئيس الراحل بموقعه العظيم فى منشية البكرى يمكن بيع قدر من مساحة أرضه ،وبحصيلة البيع نبنى فندقاً عالمياً يفرج عن أزمة الفنادق التى تعيشها مصر من ناحية ، ومن ناحية أخرى يكون الفندق مصدر دخل بالعملات الحرة ،وبذلك تشارك حرم الرئيس الراحل فى خدمة بلادها بعد أن فات الأسرةأن تشارك بمالها أو رجالها فى معركة العبور التى مسحت عن جبين مصر آثار الهزيمة والعار ؟ (١)

ونعود إلى فؤاد مطر وما أجاب به هيكل عن عفة التنظيم الواحد (الاتحاد الاشتراكى) إذ يقول « فى النظام الذى يعتمد على التنظيم الواحد لابد أن تكون هناك جيوب تستغل لنفسها مواقع السلطة دون أن يكون قصدها الاستفادة المالية » .

لو ان الأستاذ هيكل أراد أن يقول كلمة الحق فى هذه الجيوب ، لسجل أن تاريخ مصر لم يشهد أحداً استغل البلاد مالياً مثلما استغلته هذه الجيوب ..

إن صاحب بصراحة لم يكن قط صريحاً فى أمر هذه الجيوب ، لأنه يعلم أن أصحاب الملايين ، وأصحاب القصور ، وأصحاب الحدائق الغناء ، وأصحاب التجارات الواسعة ، وأصحاب السيارات الفخمة ، وغير ذلك من ترف الحياة ، كلهم من هذه الجيوب ، ولو طبق قانون من أين لك هذا تطبيقاً سليماً لرأى هيكل أن التنظيم الواحد قد تحول كله إلى جيوب ؟ ...

وقد أعجبنى هيكل وهو يعرض لتاريخ مصر ، فيحلل تحليلاً ممتعاً

---

(١) ونذكر للتاريخ أن رئيس الجمهورية الثالث محمد أنور السادات قد استشهد شقيقه الطيار فى أول « طلعة » فى هجوم أكتوبر ١٩٧٣ وبذلك ساهمت أسرة السادات فى سبيل مصر بالدم والجهد والدموع .

دور صلاح الدين الأيوبي ومحمد على الكبير وإن بالغ فى الأمر وراح إلى بعيد ، فزعم لصلاح الدين ما ليس له ، فهو زعيم إسلامى وليس زعيماً عربيًّا كما يقول ، مثله مثل محمد على ، فكلاهما أعجمى وكلاهما عاش ومات لا يعرف إلا حصيلة ضئيلة من اللغة العربية للتفاهم العادى مع الخدم فى القصور .

وأنا لا أذهب معه فى أن محمد على كان يبنى مجداً شخصياً فى كل ما قدمه لمصر حتى نقلها من دولة متخلفة إلى دولة منافسة للدول المتحضرة فى ذلك الزمان .

هل كان بناء القناطر الخيرية وشق الترع وإنشاء المصارف لمجد شخصى ؟!

هل كان إدخال القطن وزراعته فى مصر وإقامة مصانع الغزل والنسيج لأمجاد شخصية .

هل كان إنشاء المدارس لكل علم وفن سعياً منه لمجد شخصى ؟ !

لقد أحدث محمد على حدثاً فى تاريخ الشرق كله بإنشاء مدرسة للبنات يتعلمن فيها الطب ، وعين لها أكفأ المعلمين والمعلمات ، وندب لإدارتها كبير الأطباء كلوت بك ، وألبسهن فاخر الثياب ، ووظف لهن (البلانات) لرعاية نظافتهن ، وعين المتخرجات طبيبات فى رتبة الملازم الثانى ، وأمر (بالبلطجية) — أى حملة البلط — لحراستهن أثناء أداء وظائفهن ...

هل أحدث محمد على هذا الحدث لبناء مجده الشخصى ؟

هل كان محمد على ساعياً إلى مجده الشخصى حين بعث البعوث من أبناء الفلاحين إلى أوربا ليتعلموا ويعودوا لخدمة مواطنيهم من أبناء الشعب؟

ولم يكن هيكل دقيقاً حين زعم أن أفراد هذه البعوث كانت تعود فتلقى المتاعب ، وقد أخطأه التوفيق فى المثل الذى ضربه برفاعة الطهطاوى

إذ عاد الرجل من الخارج فاختاره محمد على لساناً له وعينه رئيساً لتحرير الوقائع المصرية وتخرج فيها على يديه نخبه من صحفيى مصر ولبنان . ثم وضع تحت تصرفه جميع الإمكانيات التى تعينه على نشر العلوم والمعارف ، ولم يلق الطهطاوى المتاعب إلا فى عهدعباس الأول الذى أبعده إلى السودان ، أما فى عهد محمد على وفى عهدى سعيد وإسماعيل فكان الطهطاوى ألمع المصريين الذين وكلت إليهم الدولة كثيراً من نشاطها فى شؤون الصحافة والتعليم .

إن المجد الشخصى لأى زعيم أو حاكم مرتبط بما يقدمه لبلاده من خدمات ..

لمجد من كانت حرب اليمن التى بذرنا فيها نحو ألف مليون جنيه استرلينى فضلاً عن أطنان من الذهب وزعت على القبائل حتى تعرّى نقدنا من غطائه ؛ ثم ضحينا بعشرات الألوف من زهرة شبابنا ، وخرجنا منها فى مهانة بعد اجتماع الرؤساء فى الخرطوم ؟

لمجد من كانت مغامراتنا فى الكونغو بلا دافع مفهوم ؟

لمجد من غامرنا فى حرب ١٩٦٧ وحاقت بنا هزيمة لم تشهدها مصر من آلاف السنين ؟

لمجد من أنشأنا الصحف فى لبنان ، وقدمنا الملايين لنشر أوراق الدعاية وشراء ذمم الكتاب والمؤلفين ؟

ما أظن أن هذا كله ، وغيره كثير كان من أجل مصر التى جاعت لبناء أمجاد فى الهواء وإقامة صروح على رمال ؟ ...

وفى فخر — يستحقه بلا مراء — يتحدث هيكل عن الموضوعات التى نشرها فى الأهرام ، ونشرها سواه من المحررين وأثارت الرئيس الراحل

الذى بلغ ضيقه بها حد الغضب فى كثير من الأيام فإذا « معظم الكتاب والصحفيين الذين اعتقلوا أيام جمال عبد الناصر كانوا فى الأهرام » .

وهذا صحيح ، فان كثيرين من كتاب الأهرام ، كالأستاذ الدكتور لويس عوض والأستاذ لطفى الخولى وغيرهما فى سائر الصحف والمجلات تعرضوا لغضب عبد الناصر ، وذلك لأنهم من المفكرين الذين لابد مهما تحرجوا وتحرزوا من أن يجنحوا فى الرأى إلى ما يضيق له مثل هذا السلطان !

وهذه الشهادة الصادقة التى أدلى بها هيكل ليست فى جانب الرئيس الراحل بحال ، فهى وثيقة على أنه يعتبر الرأى الحر جاجة ، وليس عنده علاج لأصحاب الأفكار من الأحرار غير السجن والاعتقال !

وقد فات صحفينا أن يسجل للتاريخ أيضاً المحنة التى مر بها عميد الصحفيين فى مصر الذى عرفته منابر البلاد وصحفها وإذاعاتها على مدى خمسين عاماً ، لا يكل فيها خطيباً ومحاضراً ومعارضاً فى مجلس النواب ، ولا يمل من الكتابة فى الصحف التى بدأها فى الأهرام شجاعاً جريئاً ، استطاع يوماً أن يقول للزعيم الخالد سعد زغلول . لا ... وقالها فى وقت كان المصريون يرون فى سعد أسطورة قد أيده الله سبحانه وميزه فنضج البطيخ محفوراً عليه اسمه ! وأن حروف هذا الاسم تظهر بين ليلة وأخرى منظومة بنجوم السماء !...

قالها الرجل فى اعتزاز وفى براءة وإخلاص ، وكان بذلك معارضاً سعداً العظيم ، ممثلاً جبهة الرفض فى ذلك الزمان ، وهو رفض المخلصين المؤمنين بما يعتقدون من غير مزايدة ودون تهريج كما نرى فى جباه الرفض هذه الأيام .

لقد نشر الرجل رأياً فى مجلة المصور يدور حول السعى لإقامة سلام دائم وعادل فى الشرق الأوسط بحيث تعيش فيه دول المنطقة آمنة مطمئنة على حدودها ، وتتفرغ بذلك للإصلاح الداخلى كى تعيش فى استقرار ورخاء ...

وكفر ُزعرب ...

إن الشعارات قررت أن ُيقذف باسرائيل فى البحر ... فكيف يجرؤ هذا الرجل ويعرض سلاماً تعيش فيه إسرائيل دولة لها حدود وكيان ؟

وصدر قرار الحرمان ...

يلزم الرجل بيته ، ويحرم راتبه ، ويمنع من أعز ما نذر له نفسه وقلبه ، يمنع من الكتابة فى الصحف والمجلات ...

ولزم فكرى أباظة بيته ، وعزت عليه مطالب الحياة . فهو وإن كان من أعرق البيوت المصرية التى لها فى تاريخ مصر تاريخ ، إلا أنه من الفرع الذى لا يزعم لنفسه الغنى والثراء .

وتوسط هيكل ، واشترط الرئيس أن يعلن فكرى أباظة توبته ، ويعيد إذلال « كانوسا » (١) أمام الله والناس .

وجاء هيكل بفكرى أباظة إلى الأهرام ، واستكتبه التوبة راكعاً عارى الرأس حافى القدمين ؟!...

---

(١) غضب البابا منذ عدة قرون على أحد الملوك : نأصدر قراراً بحرمانه ، وكاد الملك أن يسقط عن عرشه نتيجة لهذا الحرمان ، فذهب إلى بلدة « كانوسا » حيث يقيم البابا ، وأعلن توبته أمام قصره راكعاً سبعة أيام ، حاسر الرأس حافى القدمين .

إن هيكلاً : بصراحة ، لم يكن دقيقاً فى إجاباته على فؤاد مطر ، بل تجاوز المنطق فى كثير من هذه الإجابات !!..»

لقد أبدى مطر شيئاً من الدهشة لنتائج الاستفتاءات التى أجراها الرئيس الراحل والتى أجبر الناس على إبداء الرأى فيها ، وهى استفتاءات تكاد تصل فى الموافقة عليها إلى حد الإجماع ...

وقال هيكل إن المعارضين فى كل استفتاء بما فيها الاستفتاء على رئاسة عبد الناصر للجمهورية لم يتجاوز عددهم من خمسة آلاف إلى عشرة آلاف مواطن .. وإن هذه الاستفتاءات كانت حرة وإن تزويراً ما لم يحدث فى واحدة منها ؟!!...

ويعلم هيكل أنه كان فى السجون والمعتقلات نحو سبعين ألف مواطن معارض لنظام الحكم ، وما أظن واحداً فيهم كان يصوت إلى جانب الرئيس الراحل لو أتيحت له الفرصة وأدلى بصوته فى أى استفتاء ...

وما أظن واحداً من المثقفين الذين ساءهم حكم الفرد ، وعطل مواهبهم وشل نشاطهم البطش والطغيان كالمحامين والأطباء والمهندسين والمعلمين وأساتذة الجامعات ، وهم يقدرون بعشرات الألوف ، ما أظن واحداً منهم – باستثناء المنافقين والمنتفعين – صوّت إلى جانب ما طرحه الرئيس من استفتاءات على رئاسة الجمهورية أو على المواثيق والبيانات ...

وما أظن واحداً ممن صادروا أمواله وخربوا بيته ، وسرقوا ممتلكاته ومصاغ زوجاته وبناته ، وهم أيضاً يقدرون بالألوف ، ما أظن واحداً منهم كان إلى جانب الرئيس فى أى استفتاء ...

ولا شك أن أنصار الأحزاب وهم خصوم الثورة التى حالت بينهم

وبين دورهم السياسى وهم فى تقدير المنصفين لا يقل عددهم عن مائة ألف مواطن كانوا ضد أى استفتاء أجرى فى نظام الرئيس عبد الناصر ...

فإذا قدرنا أن لكل فرد من هؤلاء زوجة ناخبة وأربعة أنصار لهم حق الانتخاب من أولاده أو من أسرته لأصبح عدد الساخطين الكارهين للحكم أكثر من مليون مصرى سوف يقولون لا بالفم العريض ...

إحدى اثنتين : إما أن هذه الاستفتاءات كانت مزورة ، وإما أن هؤلاء جميعاً قد أصيبوا بلوثة فذهبوا إلى صناديق الانتخاب وقالوا .. نعم ؟!

لقد ذهبت إلى قسم عابدين لأسدد الغرامة المفروضة على كل من تخلف عن مزاولة واجبه فى التصويت على إحدى الاستفتاءات ...

ووجدتنى قد صوّت فى هذا الاستفتاء ؟! ...

هكذا قالت الدفاتر ؟

وهكذا قال الشاويش !

وأعدت الجنيه إلى جيبى وكفى المؤمنين القتال !...

ونقرأ حوار هيكل مع مطر فى كثير من الشئون ، ونعجب لزميلنا النابه وهو يؤرخ ثم يصر على أن يحكّم هواه فى كبريات الأمور ...

إن هيكلاً يضفى على الرئيس الراحل هالة من المجد لم يدعها الرجل لنفسه . فيزعم أن بدء الجهاد فى فلسطين كان على يد عبد الناصر ، فهو الذى درب الإخوان المسلمين على الكر والفر ، وأنه وهب وقته وروحه لهذا التدريب .

ولم تذكر الصحف والكتب ، ولم يذكر الإخوان المسلمون ، بل لم

يذكر أى مواطن مصرى عاش هذه الأحداث وهم مئات الألوف ولا يزالون أحياء يرزقون ، لم يذكروا جميعاً إلا رجلاً واحداً كان على رأس هؤلاء المجاهدين هو القائمقام أحمد عبد العزيز الذى استشهد فى هذه الحملات وقيل إن أنصار الملك هم الذين قتلوه ...

ويحجب هيكل فى حواره مع مطر الدور الرئيسى الذى قامت به حكومة الوفد فى محاربة الإنجليز فى السويس بعد أن ألغت فى شجاعة وشهامة وثورية معاهدة ١٩٣٦ ، وتولت تزويد الفدائيين المصريين بالسلاح والمال ، ووقف من ورائهم فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن ، ويشهد بذلك وجيه أباظة وهو واحد من الضباط الأحرار النابهين .

ولا أزيد فى نقد ما أجاب به الأستاذ هيكل على أسئلة فؤاد مطر ، غير أنى أود أن أصحح — للتاريخ — قائمة طعام الرئيس ، وهى مكونة كما ذكرها هيكل « من الجبنة المصرية البيضاء والجرجير والخيار والطماطم » فقد كان فيها أيضاً كما روى لنا أقرب المقربين للرئيس ، بعض أنواع الجبن السويسرى الذى كانت الطائرات تحمله إلى مصر كل يوم اثنين من كل أسبوع .

ثم أضيف — للتاريخ أيضاً — أن الرئيس تناول مشروباً لذيذ الطعم عند زيارته لأمريكا ، وأعجب بهذا المشروب ، ومنذ عودته إلى الوطن والطائرات الأمريكية تحمل له هذا المشروب إلى يوم رحيله ، وكان المشروب ينقل على نفس الطائرات إلى بيروت يوم قطعت العلاقات بيننا وبين الولايات المتحدة ، ومن بيروت كانت تحمله الطائرات اللبنانية أو المصرية إلى مائدة الرئيس .

أشياء صغيرة فى حياة رجل كبير ...

ولـــــنا رأى ..

حين سجل الجبرتى يومياته فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » لم يكتبها بعد مضى خمسين سنة من الأحداث التى عاشها ، بل سجلها يوماً بيوم ، مستلهماً ذكاءه فى تحليل ما يرى ويسمع ، وكانت رؤيته سليمة فى معظم ما روى لنا من أخبار ، واتفق فى كثير مع الوثائق الرسمية ، بل كان أحياناً أصدق منها وأوضح .

وكانت وثائق الجبرتى ، عقله الذى لم يطفف الكيل أو يخل فى تقديره الميزان ، ثم ما رآه بنفسه أو سمعه من الخاصة القريبين من السلطان ، لذلك كان تأريخه للحملة الفرنسية وصدر أيام محمد على من أدق ما كتب فى هذا الموضوع ..

ويرى كثير من المؤرخين أن الجبرتى فى يومياته وتحليله للأمور أفضل فى بعض الجوانب من التاريخ الذى كتب بأمر من الجنرال بونابرت وسمى (وصف مصر) ولا يزال إلى اليوم مصدراً له قدره بين مراجع التاريخ .

ومع أن وصف مصر توافر على كتابته أعلام المفكرين فى الحملة الفرنسية من علماء ومهندسين وأطباء وجيولوجيين وزراعيين ومؤرخين من أساطين المعرفة وأعضاء المجمع العلمى الفرنسى ، فان بعض الأخطاء — عمداً أو عفواً — كانت واضحة فى كثير من الفصول :

وقد كان الجبرتى محققاً ومدققاً فى كل ما تعرض له عن الحملة الفرنسية ، وكذلك كان مؤرخاً متجرداً حين أعطى محمد على حقه بالرغم مما ناله من أذى فى عهده . غير أننا لا نزعم أن الجبرتى تجرد عن عواطفه حين أرخ « للمماليك المصرية » كما كان يسميهم دائماً ، فقد كان هواه واضحاً معهم ، غير أن ذلك لم يؤثر على مقام كتابه الذى أصبح حتى يومنا هذا ، المصدر الأول لتلك الفترة من تاريخ البلاد .

وأضعف ما فى كتاب الجبرتى الجزء الأول منه الذى تحدث فيه عن أجيال ما قبل الحملة الفرنسية ، فهو دراسة لم يعشها الجبرتى بل نقلها عن غيره . ولم يكن غيره على المستوى الذى كان عليه مؤرخنا الكبير .

ولو وضعت الحقائق المطوية ، والسجلات الحكومية ، والوثائق الرسمية تحت بصر الجبرتى لبرئ كتابه من النقد وخلا من الأخطاء .

لذلك رحبنا بأن يصدر الرئيس السادات قراراً بتأليف لجنة تجمع الوثائق الخاصة بتاريخ ثورة ٢٣ يوليو ، فان هذه الوثائق مبعثرة ، ونحن نكتب عن الثورة أحياناً ، وربما تكون كتابتنا صحيحة وصادقة لأننا عشنا التجربة ولأننا عدنا إلى كثيرين من أصحابها ، ورجعنا إلى ما نشروا من كتب ومقالات أو ما أذاعوا من أحاديث ومواثيق وبيانات ، إلا أن بعض الجوانب من هذه الثورة لا يزال غامضاً أو لا تقوم على صحته وثيقة أو دليل .

ولنا رأى فيما جاء بعد ذلك من قرار الرئيس ، فان حبس الوثائق بعد تجميعها خمسين سنة يحجب الفضل الذى ستقوم به الدولة من تجميع للوثائق والأسانيد .

ويعنى حبس الوثائق خمسين عاماً عقوبة لمؤرخى العصر الذين بعلمهم وتجربتهم ومعايشتهم لأحداث الثورة أقدر على تأريخ هذه الثورة تأريخاً سليماً ومدعماً وعلى مستوى من المسؤولية لن يتحقق بحال لحفدتنا من المؤرخين الذين سوف تنقصهم الرؤى الدقيقة التى ندعيها لأنفسنا إذا أتيحت لنا كتابة هذه الحقبة من التاريخ .

ولست مع القرار فى تأليف لجنة لكتابة تاريخ الثورة ، على أن يكون لها مدخل هو الأيام التى سبقتها والتى لا أعرف متى تبدأ هذه الأيام ؟

إن الحكومة لا تكتب التاريخ ...

إن التاريخ لا يكتب بقرار ...

إن اللجنة التى ستكلف بكتابة تاريخ الثورة سوف تخطىء ، ولابد أن تخطىء كما يحدث عادة فى كل كتب التاريخ ، ولأنها لجنة تألفت بقرار حكومى ، فإن خطأها سيجسمه الناس ، وسوف تذهب بهم الظنون ، وخاصة أن كتابة تاريخ الثورة سيشرف عليه مسئولون لهم فى هذه الثورة — من بعيد أو قريب — قدر ونصيب ، وليست لهم العصمة التى هى لله سبحانه حتى يبرأ وجدانهم من الميل أو المجاملة أو غض الطرف عما يعيب .

اعطونا الوثائق والأسانيد ، فإن أخطأنا — وهذا وارد — فان غيرنا سوف يصوّب أخطاءنا ، وسوف يجىء آخر المطاف كتاب فيه من الدقة والجهد والأصالة ما يجعله مرجعاً لكل من يريد أن يعرف الحقيقة عن مصر والثورة بعيداً عن التأثير والتوجيه .

وهذا النقد البناء الذى أتعرض فيه لقرار جمهورى إنما يمليه الإحساس

بالمسؤولية ، فأنا واحد من الذين كتبوا جانباً من تاريخ مصر الحديث، وهو تاريخ الصحافة المصرية ، وكانت الوثائق التى تضمها إدارة المحفوظات فى قصر عابدين رافداً من الروافد الأصيلة التى اغترفت منها هذا التاريخ ، وكان بعض هذه الوثائق باللغة التركية ولغات أجنبية أخرى أجهلها ، فكانت هذه الإدارة تترجمها لى وتقدمها بخط واضح معاونة منهـا على حل ما يستغلق على من الوقائع والأحداث .

فإذا كان هذا قد حدث فى عهد النظام الملكى ، وهو العهد الذى كان يخشى كلمة الحق فى تاريخ الولاة والخديويين والسلاطين والملوك من أسرة محمد على ، فإن تهيئة الفرصة لنا فى عهد الجمهورية لدراسة أهم أحداث التاريخ التى مرت بمصر واجب محتوم على المسؤولين ترفعاً بالعهد عن أن يتهم بأنه يخشى الدرس والمتابعة ، وليس هناك ما يبرر هذه الخشية ما دمنا جميعاً نسعى لكشف المخبأ من بعض جوانب الثورة التى لا تزال غير معروفة أو مدروسة .

ولا بأس من أن تحبس عنا بعض الوثائق التى تمس الشؤون العسكرية نيت مصر فى حالة حرب مع إسرائيل ، وإن كان الإسرائيليون قد صدروا الكتب الموثقة المسندة ، وعالجوا أسباب انتصاراتهم العسكرية ثم بينوا أسباب هزيمتهم الأخيرة فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

لقد أبرقت لجميع المسؤولين على كل المستويات ، كما أبرقت لجميع صحف مصر فور صدور هذا القرار الجمهورى ، أسجل ما سجلته هنا ، ولم تنشر صحيفة ما برقيتى أو أشارت إليها ، بل لم تنشر أى صحيفة منها كلمة

تاييد أو اعتراض ، كأن كتابة تاريخ مصر والثورة وحبس الوثائق خمسين سنة مسألة تافهة لا تستحق أن تختلف من أجلها الآراء ...

* * *

ومن هذا الإحساس بالعجز عن إعلان رأينا زاد إيمانى بضرورة إطلاق الحرية للأفراد فى إنشاء الصحف والمجلات ليجد مثلى صحيفة تتجاوب معه أو أنشئ صحيفة تكون منبراً لى ولغيرى ممن يرون آرائى ، أو يذهبون مذهبى فى النظر إلى الأشياء ، ولا يكون صدورها معلقاً على شرط موافقة المجلس الأعلى للصحافة الذى ألفوه ليمنح تراخيص الصحف أو يرفضها .

إن انتقال حق النظر فى منح تراخيص الصحف من الجهة الإدارية إلى المجلس الأعلى للصحافة يعنى العودة بنا إلى عهد مراكز القوى ، وفى ذلك شجبت ورقة التطوير هذا التفكير إذ قال الرئيس السادات فى ورقته : « أعتقد أنه آن الأوان لكى نطرح جانباً مفهوم أن الاتحاد الاشتراكى سلطة فتلك كانت دعوى مراكز القوى التى قصدت منها أن تسيطر على كل السلطات بطريق خفى وبعيداً عن كل رقابة » ثم يتحدث عن رسالة الاتحاد الاشتراكى فيقول إنه « الإطار المنظم للحركة السياسية للجماهير الشعبية » ثم يقول : « الاتحاد الاشتراكى ليس حزباً حتى يكون الحزب الحاكم الذى يملى إرادته على الحكومة والبرلمان » .

وقد أرادت الدولة أن تتخلص من سيطرة الاتحاد الاشتراكى على حق إصدار الصحف حتى تتجاوب مع ورقة التطوير ، فصدر قرار بانشاء مجلس أعلى للصحافة ، وأصبح لهذا المجلس حق منح تراخيص الصحف والمجلات .

إن فى السلطة التى منحت لهذا المجلس اعتداء على الدستور سيد القوانين ، والذى كفل فى مادتيه ٤٧ ، ٤٨ حرية الرأى كمبدأ ، وأكد حق كل مواطن فى التعبير عن رأيه ونشره بأى وسيلة وأكد له من بين ذلك حق إصدار الصحف .

ويبدو أن المجلس الأعلى للصحافة لا يصغى بالمودة إلى نصوص الدستور ، ودليل ذلك أن بعض المواطنين تقدموا إليه طالبين الرخصة بصحيفة أو مجلة ، ومضت على طلباتهم شهور وأسابيع ولم يتلقوا رداً سواء بالرفض أو القبول ، مما دعا بعضهم إلى التقاضى أمام مجلس الدولة ليفصل فى أمرٍ ، وجهُ الحق فيه أبلج ولا ينبغى أن يحدث فى أمره تقاعس أو تأخير .

وبصرف النظر عن مخالفة الدولة لنصوص الدستور فى إنشاء هذا المجلس ، فان منطق الأشياء يفرض أن يكون لكل مواطن حق إصدار أى صحيفة أو مجلة ، فهناك الاتحاد الاشتراكى وله صحفه وفى مصر كما قال لنا الرئيس السادات فى ذكرى ثورة ٢٣ يوليو يمين ويسار ، وكلا الجناحين بعيد عن الاتحاد الاشتراكى وفى حاجة إلى أداة تعبير لإعلان آرائه وأفكاره فكيف يتم له هذا الإعلان إن حرم صحيفة تعبر عن هذه الآراء والأفكار ؟

إذا كان من حقنا أن نرفض عضوية الاتحاد الاشتراكى ، فكيف نلزم بقراءة صحفه وأقلامه ؟

إننا نتسول مكاناً عند صحف الاتحاد الاشتراكى لننشر فيه أفكارنا ...

إن المسؤلين عن صحف الاتحاد الاشتراكى وإن كانوا لا يخضعون لرقابة ما فإن هناك طائفاً يحوم حولهم ويذكرهم دائماً بأنهم موظفون فى صحيفة ، يجرى عليهم الرزق كما يجرى عليهم النقل والفصل والتشريد .

صحيح أن هذا لم يحدث فى عهد الرئيس السادات ، وخاصة أى إجراء من شأنه أن يفصل الصحفى أو يشرده ولكن من يضمن لرؤساء التحرير أن يطمئنوا إلى سلطانهم فى صحفهم إذا غاب الرئيس السادات لسبب أو آخر عن موقعه ؟

لذلك فإننا حين نتسول مكاناً لننشر رأينا فى هذه الصحف يحول الطائف الذى يحوم برئيس التحرير دون الاستجابة لتسولنا حتى لا يعرض نفسه للمساءلة أو التوبيخ أو وجع الدماغ !

وكم من مرة اعتذر صديقى رئيس التحرير عن نشر مقالاتى فهى حيناً — كما يقول — من نار ! وحيناً آخر يقول .. يا له من مقال ملعون !! ...

إن أصحاب اليمين واليسار والمنابر فى الاتحاد الاشتراكى سوف يفتقدون جميعاً الصحف التى تعبر عن آرائهم ، وليس أمامهم إلا صحف الاتحاد الاشتراكى يقرءونها ، وليس من أمل فى أن يكون لهم فى تحريرها نصيب .

إن صحف الرأى الآخر ، فضلاً عن أنها صمام الأمان للحريات . فسوف تكون أقوى سند للحكومة والنظام يوم تواجه البلاد الأزمات والمدلهمات .

ما رأيكم فى جبهات الرفض هذه الأيام وهى تنفث سمومها منذ أعلن فك الارتباط الثانى على جبهة سيناء ؟

صحيح أن صحف الاتحاد الاشتراكى قد أبدعت فى الرد عليها ، وكالت لها صاعاً بصاع ، وفندت مزاعم هؤلاء المرتزقة ومن يسعى سعيهم من ملوك الشعارات وشراذم المخدوعين الذين تظاهروا بالهتافات الوقحة ضد مصر ورجالها المجاهدين ...

إن تأييد صحف « الرأى الآخر » التى غابت عن الميدان ، هو التأييد الصادق النابع من ضمائر جماعات لا تربطها بالحكومة رابطة ، والتى يفحم تأييدها جبهات الرفض التى تزعم اليوم أن صحف الحكومة تؤيد الحكومة ...

إن صحفاً « للرأى الآخر » حين تدلى بدلوها مؤيدة لخطى زعيم البلاد ، إنما تؤكد للخصوم أن مصر جميعاً وراء ذلك الرجل ، لم يتخلف منها قطاع حيث التقت صحف الحكومة وصحف المعارضة على رأى ، وحين يتم اللقاء على هذا النحو تبدو الدولة أمام العالم مستندة إلى جدار ضخم من القوة والاتحاد .

لن تخف ضراوة المعارضة التى يشنها بعض الفلسطينيين لاتفاق سيناء ولما سوف يأتى بعد ذلك من اتفاقات ، لأن اتفاقاً منها سيقيم دولة فلسطين ، وحينئذ سوف تطير الملايين التى تهبط على هيئة المنتفعين فى شكل إعانات ومعاونات ، وتبدد دون رقيب أو حسيب ...

لماذا كل هذا التدليل ؟

أليس غريباً أن تحجز للفلسطينيين أماكن فى الجامعات المصرية ، ذكرت الصحف أنها آلاف الأمكنة ، وأنهم لا يؤدون مقابل ذلك مليماً واحداً بل هى أماكن بالمجان تقدم لأبناء المجاهدين الذين شرد آباؤهم وانتزعت أراضيهم وصودرت أملاكهم فى فلسطين !؟.

وأغرب من هذا أن يعيش هؤلاء المشردون الذين فقدوا أراضيهم وأملاكهم أفضل مما يعيش خاصة المصريين ، فيتنقل الطلبة الفلسطينيون إلى الجامعات بسيارات المرسيدس ، وينزلون بيوتاً لا يقطنها إلا أغنياؤنا الموسرون ...

إذا تم إنشاء دولة فلسطين ، وهو ما نبذل من أجله أرواح وأموال المصريين ، فهل ستمضى حياة هؤلاء الشباب مرفهة ناعمة ، نقلة وسكناً ولباساً كما هى حالهم اليوم ، وهو الأمر الذى يثير دهشة وتساؤل زملائهم من الطلبة المصريين ؟ ...

إن الإجابة واضحة فيما نسمع عن مظاهرات فى دمشق وبيروت ، ينظمها زعماء الفدائيين بتأييد من الروس ، يهتفون فيها بسقوط مصر ، وينعتونها بالخيانة ، ويتقيأون هتافات أخرى تباركها سوريا لسبب غير مفهوم .

كل هذا حتى لاتقوم دولة فلسطين ؟ !

وبعد فإن هذه المعارك تحتاج إلى أقلام اليمين واليسار لا لتنقد وتعارض وتصوب فقط بل لتؤيد الحكومة فى مثل ما نحن فيه ، ولتجهض قول من يدعى أن فى مصر معارضة لجهاد السادات ليس لها لسان يفصح ويبين .

من هذا المنطق نحرص على أن تكون لنا صحفنا بعيداً عن سلطان الاتحاد الاشتراكى ومشاركته بالرأى أو بالتمويل .

إن المجلس الأعلى للصحافة حين تباطأ فى السماح للمواطنين بإصدار صحف ومجلات إنما يعيد إلى الأذهان ذكرى مراكز القوى ، ويفسد المناخ الحر الذى نعيشه ، ويجعل الناس حيارى من هذا التناقض الغريب ، فبينما يدعو الرئيس السادات إلى الحرية بلا قيود أوحدود ويؤكد على سيادة القانون ، نجد

الحكومة تعطى بضعة أفراد حق إعادة المعتقلات ممثلة فى اعتقال حرية الكلمة وحرمان المواطنين من حق إصدار الصحف إلا بقرار من هؤلاء الأفراد وأربعة أخماس مجلسهم من الموظفين ، فهم محررون موظفون فى صحف الاتحاد الاشتراكى أو موظفون فى وزارة الإعلام ، أو أفراد لا تربطهم بالصحافة صلة أو نسب ! ..

مجلس أعلى للصحافة يتحكم فى أعز ما يملكه الإنسان . فكره ورأيه ومع ذلك ليس لتحكمه معارضة أو استئناف! ...

* * *

ماذا لنا بعد ذلك من رأى ؟

إن الذين اقترحوا ألا تحدد فترة لرئاسة السادات بل تمضى رئاسته مع الزمن إلى مدى حياة الرئيس ، إنما دعتهم إلى هذا الاقتراح دوافع نبيلة هى إيمانهم بالرجل وثقتهم فيه واطمئنانهم إليه .

وليس فى هذا الاقتراح نفاق ، لأنه جاء من فئات الشعب المختلفة التى لا تربطها بالسلطان صلات مباشرة ، وإنما تجمع بينها وبين السادات هذه الوشائج الطيبة التى تربط عادة بين جماهير الشعب وبين زعيم البلاد .

والذين أصبحوا رؤساء لمدى الحياة — والأمثلة على ذلك قليلة — يمارسون عادة حكماً دكتاتورياً ، وليس السادات دكتاتوراً على أى حال..

إن الرئاسة مدى الحياة لون يشبه نظم الحكم الملكى ، وقد ألغيناه...

إن الرئاسة مدى الحياة لأى رئيس شهادة بأن بلاده قد خلت من الأكفاء ونضب فيها معين الرجال ، وليس هذا صحيحاً ، لأن مصر ، على مدى الأجيال المتعاقبة أنجبت من أعلام الزعماء والقادة المغاوير من زانوا

تاريخها ، إذا مات سيد منهم قام سيد فيهم ، ولا تزال مصر عامرة برجالها في شتى مواقع الحياة ...

إن الرئاسة مدى الحياة قد تملأ نفس أى رئيس بالزهو والكبرياء ، وقد تعرضه لتنكب السبيل السوية ، لأن الطمأنينة إلى دوام السلطان في يد السلطان تفسد غالباً هذا السلطان ، وخاصة إذا كان في بلاده أئمة من حملة القرآن يخشون على ذيل بغلته أن يجرأ على قطها إنسان !

نحن في أشد الحاجة إلى السادات بضع سنوات أخرى ، لأنه أعلن جهاداً مقدساً ضد الظلم والطغيان ، ولأنه بدأ صفحة مشرقة في علاقتنا باخواننا العرب ، ولأنه استن أسلوباً واقعيًّا في سياستنا الداخلية والخارجية ، ولأننا لم نجن بعد ثمار جهاده في كل هذه الميادين .

إن صاحب ذيل البغلة عالم له مكانه المقدور ، وهو رجل فقه ودين ، ولعله بعد هذه السن وكل هذه التجارب قد فرغ من مباهج الدنيا فلا ينطق إلا حقًّا ولا يقول إلا صدقا ...

ففي أى عرف أو في أى دين جاء أن بشراً قد خلا من العيوب والأخطاء ؟

وفي أى ناموس يكون رئيس الجمهورية فوق النقد أو المحاجة والنقاش ؟

فكيف ينتفض صاحب ذيل البغلة ويدعو بشدة إلى حرمان البلاد من حقها الدستورى في اختيار من تشاء لرئاسة الجمهورية خشية أن يذكر المنافسون في معركة الرئاسة عيباً في الرئيس السادات ؟

يبدو أن شيخنا قد أخطأ النظر ونسى التاريخ فظن أن على المنصة رئيساً آخر وأن الزمن قد وقف عند سنة ١٩٦٥ ...

ويبدو أن شيخنا لا يعلم أن الرئيس السادات لا يركب البغال والحمير ولا يعنيه أن يكون لها ذيل طويل أو قصير !

لقد امتطى شيخنا موجة انتهى زمانها، فنحن نعيش عهداً كلمةُ الحق تؤنسه ، والرأى الشجاع يطربه ، ولا تستهويه الدعوة سواء مشبوبة أو مشبوهة ، ولو جاءت من إمام !

كم أنا حزين لصاحبي الشيخ الباقورى وهو يختم أمجاده بالحرص على ذيل بغلة السلطان !!..

منجزات الاتحاد الاشتراكى

ونكتفى بهذا القدر من المنجزات !

حسم الأمور

لم أجد شعباً مسالماً ينفذ وصايا السيد المسيح كشعبنا الطيب النبيل ، فإن من يضربنا على خدنا الأيمن ندير له فوراً خدنا الأيسر ، لا ليصفعه مرة بل ليصفعه مرات ومرات !

ولم أر فى التاريخ شعباً أحسن العالم استغلاله كالشعب المصرى ، فهو من أعماق التاريخ كان بقرة حلوباً للهكسوس الذين ظلّوا مائتى سنة ينهبون خيراته حتى أفاق الشعب من غيبوبته فطردهم بقيادة أحمس العظيم ...

ثم أصبح للرومان مصدر غذاء وطعام ، وكانت أهراء القمح فى مصر تمد روما بحاجتها منه ، واستمرت حقلاً للمستعمر الجديد مئات السنين ، ولا أطيل فى بيان استغلال الدول لنا فذلك قد سجلته كتب التاريخ من عهد الأتراك إلى أيام الإنجليز .

ولم يقتصر الأمر على استغلالنا ماديًّا ، بل تجاوزه إلى استغلال إرادتنا التى ضاعت تقريباً فى كل هذه العهود ، حتى تحررنا أخيراً ولأول مرة — بعد انتفاضة أحمس منذ عدة آلاف من السنين — بحرب أكتوبر التى عبرنا فيها قناتنا وهزمنا عدونا على رمال سيناء ...

* * *

ولعل أبرز استغلال لإرادتنا كان فى علاقتنا مع الروس ...

لقد تسللوا للسيطرة على هذه الإرادة بمظاهر عطف بدا واضحاً عندما

رفض الغرب مدنا بالسلاح لمواجهة إسرائيل وهى تعربد فى فلسطين وتدمر البيوت والمزارع وتقتل الأبرياء من الأطفال والعجزة فى ديرياسين .

وباعونا السلاح ...

ثم خيل إلينا أن العطف قد تطور إلى حب عميق حين أسهموا فى بناء السد العالى بعد أن رفضت أمريكا تمويله وأوصت البنك الدولى بكف يده عن هذا التمويل .

وكان إسهامهم فى السد العالى مفرق طريق فى علاقتنا بهذا الصديق ...
ثم انتهى عهد فى مصر وجاء عهد جديد ...

وبدأنا نسمع أن للروس فى أعناقنا ديوناً يصرون على تسديدها فى التو والحين ...

وقيل إنهم رفضوا أن يمنحونا فترة سماح وهو تقليد يجرى بين الدول والشعوب ، وأذكر أنه كان للأمريكان عند الروس ديون ، وأنهم طلبوا فترة سماح فمنحوها ، ثم توقفوا عن السداد ثم أعلنوا إلغاء الديون ، فهى ديون حرب كان الطرفان فيها حليفين ، وما ينبغى أن يثقل الحليف على الحليف !..

فهل حقًّا للروس فى رقابنا ديون ؟

قيل إنها ثمن سلاح زودونا به وهو يمثل معظم الديون ...

حسناً ...

ولنا نحن أيضاً فى أعناقهم ديون ...

وإذا تمثلت ديوننا فى ثمن السلاح وتمويل السد العالى ، فقد سددناها ، ومال ميزان الدفع إلى جانبنا ، وها كمو بيان الخصوم والأصول :

* نزلنا عند رغبتهم فعينا عملاءهم من المصريين فى جميع مواقع الدعاية والإعلام ، وأصبحت الإذاعة والتليفزيون والصحف ودور النشر الرسمية ، أصبحت جميعاً فى خدمة الروس وعقيدتهم الشيوعية بما تنطوى عليه هذه العقيدة من عداء شرس لجميع الأديان !

فبكم تقوّم المحاكم الدولية هذا السلاح ؟

* فتحنا لهم الطريق إلى البحر المتوسط وهو حلم الروس منذ عهد القياصرة وقد حاربوا ثلاثمائة عام ليصلوا إلى هذا البحر الدافئ ، وبذلوا فى سبيل ذلك مئات الألوف من القتلى والجرحى وآلاف الملايين من الروبلات دون جدوى ، حتى أذنا لسفنهم أن تنساب إلى مياهه فى طمأنينة وسلام !..

فبكم تقوّم المحاكم الدولية هذا الصنيع ؟

* استغلوا موانينا فى التموين والتدريب والاسترخاء على شواطئنا بما يرد الصحة ويضفى على الجسم العافية ، ويملأ القلب بالسعادة من دفء الماء والهواء والطعام الجيد المفيد ...

وحساب ذلك واضح لا يحتاج إلى تقويم !..

* استفادوا من وجودهم العسكرى فى بحارنا وبلادنا ، فنشطت دعايتهم لعقيدتهم حتى أصبحت لهم فى مصر وفى إفريقية وفى سائر البلاد العربية قواعد وجسور ، وشراذم تغنى على هواهم وتعمل لمخططهم على حساب الوطن والأخلاق والدين !..

فبكم تساوى هذه اليد فى أسواق السياسة وعند أصحاب المذاهب الذين يضحون من أجل انتشارها والروح والمال والبنين ؟

* سمحنا لهم بأن يتحدثوا باسمنا ويقضوا فى أمورنا دون الرجوع إلينا ، ففقدنا استقلالنا وعدنا أسوأ حالاً مما كنا عليه أيام الإنجليز ، وأصبح جيشنا فرقة روسية تتلقى أوامرها من موسكو حيث وليّنا الذى يقضى فى أمورنا على ما يشتهى ويريد ...

فبكم يساوى استقلال أمة هى أعرق أمة عرفها التاريخ ؟

تدخلوا فى أخص دخائلنا فمنعوا عرض فيلم (دكتور زيفاجو) من عشر سنوات ، وأرادوها مرة أخرى فى عهد السادات ، ولكن التمثيلية التى ناصبوها العداء عادت إلى العرض بحكم قضائى ، لأن فى مصر اليوم قضاء وسيادة للقانون ولم يكن فى مصر من قبل قضاء ولا قانون ...

فبكم تعوض المحاكم عن مثل هذا الافتئات الصريح يقع على سيادة البلاد ؟

* قصرنا تجارتنا عليهم ، فكانوا يشترون قطننا وبصلنا وأرزنا وغير ذلك من منتجات أرضنا ومصانعنا بثمن رمزى ثم يبيعونها للغرب أحياناً بعشرة أضعاف ثمنها ...

أليس لهذا الربح الخيالى تقدير عندما يناقش الحساب بين الدائن والمدين ؟

* باعونا سلاحاً وفرضوا أن يكون سلاح دفاع ، فلما استعملناه فى الهجوم لرد اعتبارنا ، وحققنا به نصراً نادر المثال فى التاريخ ، حرمونا

قطع غياره ، وحبسوا عنا غيره من الأساحة المتطورة ونحن فى أتون المعركة ، وكانوا بذلك أشد بأساً علينا من الأعداء ...

فكم نستحق تعويضاً عن هذا الموقف الذى لا اعرف كيف يصفه علماء الأخلاق ؟

* ومن الديون التى يحسبونها علينا ما قدموه لطغاة الأمس من مال ابشتروا به سياطاً وسماً وأدوات تعذيب من أسواقهم أومن الأسواق التى تجرى فى فلكهم !..

فبكم نعوض عن ظهورنا التى ألهبتها السياط أو رجالنا الذين ماتوا بالسم أو ماتوا بشتى ألوان التعذيب والعذاب ؟

صدقونى إن لنا فى عنق الروس ديناً ... عليهم ان يسددوه ...

وسوف نمنحهم فترة سماح ! ....

* * *

ثم ماذا ؟

إنه هوان لمصر ما بعده هوان أن يجيء الفتى الصغير صاحب ليبيا . فيظن أن فى مقدوره أن يشترى إرادتها بماله (السايب) الذى يبذره على التافه من الأمور ...

لقد ثار القذافى لمقالات كتبها بعض الصحفيين المصريين ، وطلب فى غطرسة أن تنزل الدولة بهم أشد العقاب ، فلما قيل له إن كتاب مصر أحرار وليست فى مصر رقابة على الصحف ، تهيأ لاغتيالهم وأعد لذلك خطة كشفتها السلطات المصرية وأجهضتها ، وبذلك حمت الأحرار من زبانيته المدربين على القتل والاغتيال .

وعجبت لهذا الفتى يتتلمذ على أستاذ يعلم آنه خرب بلاده وافقرها ،

وأنه حتى رحيله قد فشل فى سياسته الداخلية والخارجية جميعاً ، ويمضى التلميذ على نهج أستاذه فيخاصم بلاد العالم ، ويلقى بأموال ليبيا فى المؤامرات وتشجيع اللصوص والمرتزقة من كتاب وصحفيين ...

لقد هزنا انقلابه العسكرى يوم قام ، لا فرحاً فى الملك السنوسى ، فهذا الملك صاحب رسالة رائدة لا تعرفها الأجيال الصاعدة .

إنه زعيم كافح من أجل ليبيا واستقلالها وحريتها ، وقد باركت مصر جهاده يوم لجأ إليها ، ومن أرضها رتب لانتفاضته ، ولما حان الحين قاد مواطنيه وطرد إيطاليا من بلاده ، وبدأت فى عهده نهضة لا ينكرها إلا منافق أو جاحد أو موتور ...

ولم ينس الملك الزعيم لمصر يدها فساهم فى دعم جهادها بمال بلاده ، كما دعم سوريا والأردن زميلتيها فى السلاح .

إن هذا الموقف من الملك الزعيم يؤرق الوارث السفيه الذى توهم أن مصر فى المزاد ، فاذا « أم الدنيا » تتعالى على أحلام القردة والأقزام !...

لقد كان فى ظننا أن الانقلاب العسكرى فى ليبيا مفرق طريق فى كفاح العرب ، فاذا صاحبه يبدأ جهاده بثورة ضد مصر وهى تجتاز أحلك الأيام.

وما كنا نظن أن انقلاب القذافى سينشئ هذا السجن الكبير ليعيش فيه الليبيون معتقلين ، أو يفتح صدره لكل هذه الآثام يرتكبها أعوانه وحواريوه ، فلا يشرب الخمر وينهب أموال الشعب ويطير بها إلى لندن ليبددها على موائد القمار فى (البلاى بوى) ويبذرها فى بيوت الفاحشة إلا أولئك الذين زعموا أنهم قاموا بانقلاب للقضاء على الفساد ورد أموال

بالشعب للشعب ، وتحريم الخمر كما تقضى بذلك تعاليم الإسلام ! ؟ ...

إن كل هذه الموبقات التى يعف القلم عن الدخول فى تفاصيلها ترتكب وعين العقيد عنها كليلة أو قصيرة أو عمياء ...

إن الفتى منصرف إلى بناء مجده ونشر سلطانه على البلاد والعباد ...

إن المسكين يزرع فى أرض أكلتها الأملاح ... ويشيد أمجاداً على رمال ... ويقيم تماثيل من جليد ما إن تطلع الشمس حتى تنهار ...

وعجبت لنا نحن المصريين ، كيف صبرنا على هوس هذا الفتى غروره ، فزرناه واستقبلناه ثم أخذناه على حجرنا ودللناه ، وحشدنا له أصحاب الرأى ليجادلهم فيما يجب أن يكون عليه حالنا ، وما كان له أن يسعد — حالماً — بلقاء أو محاجة واحد من هؤلاء ؟

ثم سكتنا عنه حين بدأت إذاعته وأحاديثه التافهة تشكك فى جيشنا وبطولاته ، ثم تطرقت إلى شعبنا وزعيمه وأقذعت فيما روت وقالت ، وتمثلنا نحن بحكمة الشاعر وهو يتحدث عن الكرام الذين لا يردون على سفيه وقبح ما يقول ، فيزيد سفاهة ونزيد نحن رنداً وطيبا ؟ ...

وهكذا ترتب على موقفنا اللين الطرى فى معالجة هذا الوارث السفيه أن تمادى فحول مؤامرة الثانوية الفنية ، وأعلن الجهاد المقدس ضد أمن مصر فسعى إلى التخريب من تحريق وتوزيع لمنشورات الضلال .

إلى متى تنفذ مصر وحدها وصايا السيد المسيح ؟ ...

إننا — حتى اليوم — لا نريد أن نكون جادين فى أمر هذا العقيد . وإننا لنلهو ونعبث بالأسماء والمسميات ...

ما هذه الوحدة التى يحكون عنها ويقولون إنها رباط الزمن ، وإنها القدر المقدور على مصر وليبيا ؟

من قال إنها مسيرة نحو اتحاد العرب ، ومدخل صدق إلى وحدة بين جميع الرفاق .

وهل تقوم شركة بين عاقل ومجنون ؟

إذا شئتم الوحدة ، فهى مع المجانين تقوم بحد السيف ، وإلا فلتذهب الوحدة إلى الشيطان ...

وكيف ونحن ندعى لأنفسنا العقل والاتزان ، نسمح مع السباب والمؤامرات بشىء اسمه مجلس الاتحاد أو وزارة اتحادية أو غير ذلك من الأسماء والمسميات ، ثم نحتفل كل عام بيوم عرس يقام فى كنف الغدر والخيانة وسوء الأدب وقلة الحياء .

إن بلادنا فى حاجة إلى كل مليم يصرف على هذه المظاهر الفارغة والتى تسخر منها النخبة كما يسخر منها عامة الناس .

أرأيتم هذا الفندق العظيم فى قلب مصر الجديدة وقد حولوه إلى مكاتب ترفيه لوزراء دولة وهمية يختلف إليه هؤلاء الوزراء بين يوم وآخر ليسمروا وينكتوا ويتفكهوا وهم يتناولون القهوة والشاى..ثم يقبلون أول كل شهر ليقبضوا من عرق الفلاحين والعمال رواتبهم ونصفها من حر العملات ؟

وإنه لراتب ضئيل يتقاضاه الوزير ... بضع مئات من الجنيهات غير ما رصد له من مخصصات ؟ ...

إنهم لجديرون بهذا الراتب ، فقد جاهدوا لتحقيق الوحدة بين مصر ليبيا حتى أثمرت كل هذا البلاء ؟!...

إننا لا نحسم أمراً ...

فلنكن جادين مرة ، ونلغى هذا المجلس ونسرح هؤلاء الوزراء ، ونطرد بؤر التآمر من بلادنا ، ونسحب مهندسينا ومعلمينا وأطباءنا وعمالنا ليسكن القذافى الخيام ويعود إلى وضعه الصحيح ، الذى سيعود إليه حتماً يوم يجف النفط وتخلو خزائنه من المال الذى كان يجب أن يوظفه فى صناعات تعين الشعب الليبى الطيب النبيل المغلوب على أمره فى أيام قحط مقبلة ، ولا يمكن مواجهتها بغير العلم والبناء والتعمير .

* * *

ثم ماذا ؟

إن من حسم الأمور أن نرفض بشدة التدخل فى شئوننا من جانب الفدائيين الفلسطينيين ، فإن مصر مارد لا يقبل وصاية من أحد ، وقد رفض ذلك من قبل سواء وصاية الروس أو الأمريكان ...

كيف تسير الشراذم فى دمشق وبيروت تهتف بسقوط البلد الذى بغيره لن تعود أرض لأحد ، ولن ترد كرامة لإنسان سواء فى القدس أو فى الجولان ؟ ...

إن كارثة فلسطين يسأل عنها بعض آباء وأجداد هؤلاء الفدائيين الذين باعوا الآلاف من الدنم (الفدادين) لليهود وبذر بعضهم ثمنها فى تل أبيب !

لقد ذعر مصطفى النحاس حين كان يلى الحكم فى الأربعينات لما رأى اليهود يسعون بحماس، لتهويد أرض فلسطين ، فدعا إلى تأليف هيئة

عربية تشترى هذه الأراضى من أصحابها حتى يحفظ على فلسطين أراضيها ولا تباع للوكالة اليهودية بأبخس الأثمان ...

ولم يأب العرب للأسف الشديد دعوة النحاس ، فامتد سلطان اليهود على قدر كبير من تراب البلد الشقيق ، وباع الآباء والأجداد أراضيهم ، وهاجر معظمهم إلى بيروت وتلبننوا ، وأصبحوا من كبار التجار وأعلام السياسة ، وتولوا الوظائف العامة ، وشغلوا منصب الوزير بل منصب رئيس الوزراء ، وانقطعت صلتهم بوطنهم الأصيل ...

ومضت الوكالة اليهودية تشترى أرض فلسطين . . .

ومضى الأثرياء يبيعون أرضهم لليهود . . .

وقلدهم صغار الفلاحين . . .

وسعت مصر من قبل لاستقلال فلسطين ، وراحت إلى لندن فى سنة ١٩٣٦ وجلست حول مائدة مستديرة ، وحاولت أن تأخذ فلسطين من الإنجليز للفلسطينيين . . .

وقال اليهود إنها بلادنا منذ هاجر إليها من مصر نبينا موسى ، وقد جاء ذلك فى كتبنا منزلة وموضوعة . . .

ثم قالوا واشتريناها بأموالنا . . .

وثار الفقراء الباقون فى أرضهم .

وعرض على الطرفين تقسيم فلسطين . . . وكان التقسيم يعطى اليهود شريطا صغيراً من الأرض ، ويعطى أهل البلاد جل فلسطين . . .

وتحكم الهوى . . .

وانطلقت الشعارات . . .

واشتدت المزايدات . . .

وسيطر العناد . . . . .

واستعد اليهود ليوم خروج الإنجليز من فلسطين ! . . .

وخرج الإنجليز فى ١٥ مايو ١٩٤٨ . . .

ودخلت مصر الحرب ضد العصابات الصهيونية !....

وخسرنا الحرب بالخيانة. . .

وأى خيانة ؟...

كانت الخيانة من رفاق السلاح ...

وكانت الخيانة فى الطريق إلى القتال ...

كان المفروض أن يقفوا إلى جانبنا ونحن نجاهد من أجل فلسطين ، فامتنعت العراق عن الحرب ، وقال قائدهم فى الميدان ... ماكو أوامر ؟...

يعنى ليست لديه أوامر للقتال ؟...

وتوقفت جبهة أخرى عن النضال فجأة وسلمت «اللّد» ومطارها لليهود. وانكشف بذلك جناح المصريين ، وحوصروا فى « الفالوجة » عدة شهور وكافحوا فى معركة الحصار حتى أنهكوا العدو ليخرج جنودنا شاكى السلاح لا جنوداً مأسورين ...

وفى الطريق ، كان الإخوة العرب من الأعراب يبيعون جنودنا وضباطنا للعدو ... للجندى ثمن وللضابط ثمن آخر ...

وفى الطريق ، هاجمنا الإخوة العرب من الأعراب وسرقونا !

وفى الطريق ،قايض الإخوة العرب من الأعراب . . . بجرعة الماء .... ساعة اليد أو مايحمل الجند من مال أو سلاح أو لباس ! ..

وكانت النتيجة أن ساقونا من أقفيتنا إلى رودس حيث وقعنا وثيقة الهدنة ، وقعها المصريون الذين هزمتهم الخيانة ، ووقعها الخونة الآخرون من زعماء العرب أصحاب المزايدات والشعارات ...

وقالت مصر سوف نسترد فلسطين ..

ودخلت مصر الحرب مرتين دون استعداد وبجهل ، فانهزمت فى ١٩٥٦ وفى ١٩٦٧ وضاعت أراضيها كما ضاعت أرض فلسطين !...

وأصرت مصر على النصر ، وانتصرت فى أكتوبر ١٩٧٣ ،

هذا أصل القضية التى لا يعرفها الجيل الصاعد من أبنائنا ، وقد لا يعرفها كثير من الفدائيين ...

إن مصر قد تعهدت فى أريحية الأحرار أن تسترد للفلسطينيين أرضهم ، وقد ضحت فى سبيل ذلك بعشرات الألوف من زهرة شبابها ، واستدانت أكثر من عشرة آلاف مليون جنيه لشراء سلاح تحرر به أرض فلسطين ..

إن مصر عند كلمتها تطالب دولة لأهل فلسطين ، تطلبها بالسلام ، فإن عجزت عن ذلك فبالحرب مرة خامسة حتى المرة السبعين ...

ولكن مهلا ..

نحن لا ندلل الرافضين ...

لقد هلكنا من أجل فلسطين ...

لقد انهار اقتصادنا من أجل فلسطين ...

لقد قبلنا السجن والتعذيب وخراب البيوت حتى لا نفسد حجة طغاتنا أصحاب الشعارات وهم يتاجرون بقضية فلسطين ...

فماذا يريد منا الفلسطينيون ؟

إن عقلاءهم يعلمون علم اليقين أن مصر إن نفضت يدها من أمورهم ضاعت فلسطين ، وهى ترعاهم كما ترعى بنيها ، فليتقوا الله فيها ...

إنها الأم الرءوم التى أطعمت أولادها وجاعت ، وكستهم وتعرت ، وأغنتهم ومدت يدها بالسؤال .

حذار من غضبة الأم ... فإن الجنة تحت أقدام الأمهات ...

الناصرية دين ودنيا

من منطق التقليد للماركسية نسبة لماركس أشاع الأستاذ محمد حسنين هيكل لفظ الناصرية نسبة إلى عبد الناصر ؟

ودون تفكير بأن ماركس الذى نسبت إليه الشيوعية ، لم يكن حاكماً بل كان صاحب فكرة ، وأن عبد الناصر كان حاكماً وصاحب دولة وليست له فكرة معينة ثابتة ، فإن هيكلاً وهو يتحمل نصف المسئولية فى التجربة يصر على أن هناك شيئاً اسمه الناصرية ..

إن لماركس كتاباً مقدساً على هديه قام النظام الشيوعى ، وعبد الناصر له أكثر من كتاب قامت عليه الناصرية .. له فلسفة الثورة ، وهو يشبه كفاحى لهتلر ، وله الميثاق ، وله بيان مارس ، فهو من حيث المبادئ والأفكار يرى هيكل أنه أثرى إنتاجاً من ماركس وما كتب .

ولما كانت بصمات هيكل واضحة فى كل هذه الكتب المقدسة!.. فإنه لابد أن يدافع عنها ويزعم لصاحبها ما زعم الشيوعيون لماركس ، وأن يكون لعبد الناصر مذهب يستظل به هيكل ومن أفاد من التجربة ، وأنه وإن رحل عبد الناصر فإن الناصرية باقية ، وهو — أى هيكل — الوريث الشرعى لها ، وعليه أن يؤكد هذا المذهب فى ضمير المصريين حتى يصبح ديناً ينافس سائر الأديان ، وصاحبه إلهاً يعبد من دون الله ..

هكذا فكر هيكل ، ونستعيذ بالله مما فكر فيه الرجل ومما دعا إليه ...

ووضع هيكل ساقاً على ساق .. وأطلق دخان السيجار الفخم من فمه الذى يقطر سحرا ...

وإن من البيـــان لسحرا ...

أطلق أحكاماً فى الأشياء والناس ليثبت لمطر(١) أن الناصرية ضربت فى الكون ، أصولها ثابتة فى أعماق الأرض ولا يستطيع أن يتطاول إليها أحد وقد بلغت فروعها عنان السماء ؟! ...

يتحدث هيكل عن اليمين فى مصر فيقول إنه « شراذم » متهالكة تريد أن تعود إلى الحياة بعد عبد الناصر دون أن تتعلم من تجربته شيئاً ! ...

ويتحدث عن اليسار فيرى أنه حل نفسه وانتهى ! ...

ولم يبق إلا الناصرية يدعمها ثلاثة ملايين عامل ، ونصف مليون من طلاب الجامعات .

ويرى هيكل أن الناصرية مارد شامخ لم يهتز قط ، لا فى أيام صاحبها ولا بعد أن رحل ...

ونأخذ هيكلاً من يده ونذهب به إلى جريدة الأهرام فى مبناها القديم سنة ١٩٦٨ ونقفز معه درج الجريدة إلى سطح ذلك البناء العتيد ... فإذا هيكل يصفر وجهه وترتعش يداه ...

إن هيكلاً يرى معنا الآلاف المؤلفة من العمال والطلبة ويسمعهم يهتفون ضد النظام وضد صاحبه وضد مراكز قواه ، ويفتنون فى النداءات والهتافات ، ويطلبون فيما يطلبون من الجبان ، أن يتعلم من عدوه موشى ديـــان ! ...

ونجرى مع هيكل لنحتمى فى حجرة من البناء العتيد ، فقد أخذ العمال

---

(١) بصراحة عن عبد الناصر — الفصل العاشر .

والطلبة يقذفون الأهرام بالحجارة ويحاولون حرق البناء ، ليقضوا — كما كانت تقول هتافاتهم — على بؤرة الدعاية والتضليل والإفساد !...

هكذا كانوا يهتفون ، وليست الصياغة من عندى ، فقد كانت هتافات العمال والطلبة تهدر على مسمع منا ، ويزغرد لها النسوة من تحالف قوى الشعب ، تأييداً للملايين الثلاثة من العمال ونصف المليون من الطلاب ...

ويمضى هيكل مع مطر ويصدر الأحكام ...

ونحن نعلم أن التنظيم الطليعى كان أداة النظام وسوطه عند اللزوم ، وكان المال وكانت السلطة ملك يديه .

ويقول عنه هيكل إنه تنظيم تافه ما إن نفخ فيه حتى طار !...

هذه أدوات الناصرية ما إن ينفخ فيها حتى تطير ...

ولكنه يقول إنها دين ودنيا ... والدين فى القلوب والدنيا لا تزول ...

أرأيتم النظام الذى يحكمنا ؟ يقول هيكل إنه امتداد لعبد الناصر ووثيقة حية على أن الناصرية تصول وتجول ؟

ولا يرى هيكل أن الناصرية بعد رحيل صاحبها أخذت تترنح وتتهاوى وتضوءل ، وأن شرعيتها قد أنهتها حرب أكتوبر ووارتها التراب فى صمت ودون ضجيج ....

لقد فصلت هذه الحرب بين عهدين ، ولعلها فكت الاشتباك بين السواد والبياض ، بين الظلام والنور ، بين الفوضى والاستقرار ، بين الشعارات والبطولات ، بين القبيح والصحيح ...

الناصرية فى مصر لا وجود لها ...

الناصرية باقية فقط فى المقالات التى ينشرها هيكل فى بيروت على صفحات النهار والأنوار ، وينشرها المأجورون من عملاء القذافى فى صحفهم الصفراء التى تعيش على الكذب والافتراء .

نحن لا نؤمن بالناصرية بل نؤمن بثورة يوليو وهى وحدها التى تحكم خطانا وتنير لنا الطريق ...

ويقول هيكل لمطر إن الناصرية عند العرب حلم جميل ، وعند بعض المصريين واقع ثقيل ، لما نال هذا البعض من متاعب التحول الاجتماعى وغير ذلك من عبارات الاعتذار التى لا تمسح ذكريات لانزال نحتم آلامها ، فإن آلامها لا تغيض...

الناصرية لها فى كل بيت مأتم لا تجف أحزانه ، وهى أحزان أقوى من موت حبيب ، فإن موت الحبيب تخف آلام فراقه على مر السنين !

ويقول هيكل لمطر إن التجربة أصبحت فى ضمير كل مصرى ، وإن عذاباتها تجيء على هامشها ...

إنه عاش نعيم التجربة وعاش الشعب جحيمها ، فالتجربة كانت هذا الظلم ... كانت كل ما حكيناه فى هذا الكتاب ، وكل ما ذكرته الصحف والمقالات ....

ويقول لنا هيكل ، إذا لم يكن عبد الناصر ضمير هذا الشعب فكيف خرج خمسة ملايين يودعونه إلى مقره الأخير ؟

إن الملايين الخمسة التى خرجت تودع عبد الناصر ، وهو رقم مبالغ فيه ! لم تكن تعلم أنها تودع السجون والمعتقلات ، وتودع القتل بالسم

والرصاص ، وتودع مراكز القوى التى أثرت من دم الشعب ، وعاشت فى الترف والشعب يموت من الجوع ، وتودع الهزيمة ... أشنع هزيمة مرت بتاريخ البلاد ، وتودع الفساد الذى استشرى فى كل منزل وناد ...

إن زميلنا النابه يجافى الحق والتاريخ حين يقول « إن النظام الناصرى هو الذى صنع أكتوبر ١٩٧٣ وهى حقيقة لا جدال فيها » ثم يقول « وكل الشوائب التى جاءت بعد العبور تتعلق بأن التجربة — يقصد النظام الناصرى — لم تساهم فى العبور » ؟

هل فهمتم ؟ ...

إن النظام الناصرى صنع مجد أكتوبر وعبر ... وإذا كانت هناك شوائب جاءت بعد العبور ، فلأن النظام الناصرى لم يكن له نصيب فى هذا العبور ؟! ...

كلام يناقض أوله آخره ...

مالكم وحرب أكتوبر .. إن حرب أكتوبر انتصار ...

إن لكم حرب ١٩٦٧ وهى تاريخكم الذى ختمتم به تجربتكم ...

إن حربكم هى الهزيمة ... وهى الخزى والعار ...

لقد حاربتم فى سنتكم تلك بجيش حطمته المواجع ، وفى مظلة من الجوع والحرمان ، وتحت قيادة أفسدها الدلال ...

حاربتم بجيش لا يعرف القتال ولا يجيد إلا الخيلاء والاختيال ...

حاربتم بجيش وزعت قيادته على جنوده قبل القتال صور الغانيات من المطربات والممثلات لتدعم معنوياته حين يجد الجد ويشتد القراع والنزال !!

أما فى أكتوبر فقد واجه جيش مصر عدوه وظهره إلى بلد بدأت تنهدم فيه السجون والمعتقلات ...

فى أكتوبر خف إلى الميدان جيش من الأحرار، كان ينقد وهو يسمر، ويبدى الرأى ولا يخاف الفجر من زوار المباحث والمخابرات ، ويطلق النكتة ولا يتوقع التعذيب بعد الاعتقال ...

كانت هناك أسباب جديرة بأن يحارب من أجلها أولادنا الأبطال ...

كانوا جادين فى محو ما خلفته تجربتكم لمصر من عار ...

لم يحملوا فى أيديهم إلا السلاح ، وإيمانهم ببلادهم ، وصرخاتهم المدوية باسم الواحد الأحد .

الله أكبر .... الله أكبر ....

أعرفتم أسباب فك الارتباط بين تجربة الناصريه ، وتجربة القوة والشجاعة والعلم والأخلاق ؟...

الله وحده كان قبلتهم ، والمصرية وحدها كانت مناهم ، ولم تكن الناصرية فى ضميرهم ولا فى يقينهم ، ولم يكن لها فى قلوبهم أى اعتبار !

أما « الشوائب » التى جاءت بعد العبور ، فهى فى مخيلة الزميل هيكل وحده ، لأن مصر جنت من النصر انسحاباً للعدو بعد انسحاب ، وتفتحاً فى ميادين السياسة والاقتصاد ، وهى فى انتظار مزيد من هذا الانفتاح ...

إن مصر ترى فى هذه « الشوائب » ضماناً لحاضر سعيد ومستقبل مأمول ، وعدالة ترفرف على جميع المواطنين ولا تحيد عن الطريق ...

إن هذه « الشوائب » دفعت المصريين إلى التكاتف والجهاد بالعقل

والقلب للتحرر من الحاجة والسؤال ، ودفعتهم إلى العمل المضنى والمثمر فى أعطاف الحب الذى افتقده بناة مصر من عمال وفلاحين ومثقفين ... فتقدوه فى تجربتكم التى جثمت على نفوسهم دهراً طال سنين وسنين ...

إن هيكلاً يقول إنه يتطلع إلى كل مكان فى مصر فلا يرى إلا وجه عبد الناصر ...

ونحن نتطلع إلى كل مكان فى مصر فلا نرى إلا وجه مصر ...

إن هيكلاً يطلب إلينا أن نناقش التجربة الناصرية « بموضوعية وأخلاق » !

وهل هذا الحوار الذى أجراه هيكل مع مطر كانت مناقشة تخضع للموضوعية والأخلاق ؟

هل من الموضوعية أن يطلب مناهيكل أن نؤمن بأن من هُزمنا تحت رايته فى حياته هو الذى قاد النصر فى أكتوبر من مثواه الرفيع ؟

وهل من الأخلاق أن نوافق هيكلاً على أن السادات ظلٌ لعبد الناصر؟ وهو الرجل الذى أغلق السجون التى فتحها عبد الناصر ، وداوى جراح كل من آذاهم نظام عبد الناصر ، وصنع النصر بشجاعة وإيمان لم تعرفهما قط تجربة عبد الناصر ؟

وهل من الموضوعية أن يحدثنا هيكل عن حرب السويس سنة ١٩٥٦ فيزعم أنها انتصار ، وهو يعلم قبل أن يعلم العالم كله أنها كانت مغامرة فاشلة ، وهزيمة منكرة ؟ ...

هل من الموضوعية أن يقول هيكل إن الوحدة العربية لم تتحقق إلا على يدى عبد الناصر ؟ ...

هل توحدت البلاد العربية بحرب اليمن ؟
هل توحدت البلاد العربية بنتف ذقون أعلام العرب ؟
هل توحدت البلاد العربية بسب أمهات الملوك والرؤساء العرب ؟

وهل من الموضوعية أن يزعم الزميل هيكل أنه نقد القطاع العام وأبرز عيوبه ، وثار على فضائحه ومخازيه ، وهو يعلم أن شيئاً من هذا لم يحدث لا من قلمه ولا من أقلام زملائه فى الأهرام ؟ ...

لقد كانت هناك عشرات الجرائم ترتكب فى القطاع العام وقد طلب النائب العام فى ذلك الزمان وهو المستشار محمد عبدالسلام ، محاكمة وزراء ورؤساء مؤسسات ومديرى شركات ، وأوضح لأصحاب النظام مدى الفساد الذى عم البلاد ، وتقدم بذلك كله مدعماً بأكثر من وثيقة ودليل ...

وصرخ الرجل وراحت صرخاته فى الهواء ...

ثم نقل الرجل حين أصر على متابعة الجريمة والفساد ....

ثم فصل الرجل مع من فصل عقاباً له على تعقب المجرمين فى كل مكان ...

هل كتب هيكل فى واحدة من هذه الجرائم وعرض تفاصيلها على المواطنين الذين لم يعلموا عنها شيئاً حتى تضمنها كتاب النائب العام الذى نشر منذ شهور أو منذ عام ؟

وما أظن هذا الذى يدعيه صاحبنا هيكل يتفق مع الموضوعية والأخلاق ! ...

ان زميلنا هيكلاً يرفض أن يجيب على الأستاذ مطر عن رأيه فيما تكتبه الصحافة

المصرية نقداً للتجربة ، لأنه لا يريد الدخول « فى الذى يكتب فى مصر عن هذا الموضوع » ! .

فلمن يكتب هيكل ويحاور ؟

إنه يكتب هناك ، فى بيروت ، ما يشاء ، فليس هناك واحد يناقشه الحساب ، أو أقل ليس هناك من يعنيه الأمر ، لأن التجربة الناصرية ، فى الأصل مصرية ، وتهم نحو أربعين مليوناً من المصريين ، ولا تعنى فى شىء إخواننا اللبنانيين . . .

إن فى ذلك هروباً من المسئولية التى أخذها على نفسه فقيه الفكر الناصرى ووارثه والمجاهد فى سبيله . . .

إن الجهاد فى سبيل الناصرية ، يقتضى منه أن يركب فرسه وينازل خصومه هنا فى مواقع النزال ! ...

لقد كان وحده يركب جواده ثمانية عشر عاما ! ...

لقد كان وحده يكتب ، فإن عارضه معارض فتحت لهذا المعارض السجون والمعتقلات ...

إن هيكلاً يعلم — موضوعياً وأخلاقياً — أن حواره فى مصر شىء يختلف عن حواره مع مطر حيث يتناوله وهو مسترخ هناك ينفث دخان سيجاره فى الهواء ؟ ! ...

إن الحوار فى مصر سيكلفه العرق والدموع ، وهيكل على ما أعتقد يقيم دائماً فى مكان مكيف الهواء لا يعرق فيه المنعمون ، وهو عصى الدمع ، فالتجربة بالنسبة له أبعد ما تكون عن الحزن والألم ، وهما من المآسى التى من أجلها تسفك الدموع ! . . .

ثم يقول هيكل إن عبد الناصر أوصى لمصر بتركة ضخمة من أعماله وأقواله ، فإذا مصر تنوء بحمل هذه التركة المثقلة بالشجون والديون ...

وكان الله فى عون مصر ... الوريثة الشقية التى ما إن تفيق من إرث حتى يفجعها إرث جديد .. والله لها فيما حط عليها من مواريث ، وما نالها من أصحاب هذه المواريث ؟ ...

جاء في الأثر :

ولا تعلموا أولاد السفلة العلم

منذ شهرين قرأت فى الصحف إعلاناً عن كتاب بعنوان (عبد الناصر المفترى عليه) .

ومن غرابة اسم المؤلف حكمت بأنه لابد أن يكون لبنانياً ممن مولهم القذافى لنشر كتب تسب أحرار المصريين ، وتقذفهم باتهامات لا أول لها ولا آخر ، وهى كل ما يملكه القذافيون من ذخيرة فى مجادلة من ينتقدون النظام الناصرى الذين أبدعوا وأجادوا فى كشف عوراته فى كتب ومقالات لا يرقى إليها الشك ولا يأتيها الباطل من يسار أو يمين ...

ومضيت أقرأ الكتاب مصطدماً بين آن وآخر بأخطاء نحوية لا تفوت تلاميذ المدارس الابتدائية ، ومصطدماً بخلل عجيب فى سياق الحديث ، ثم أقرأ آراء لهذا الفتى الذى يدافع عن عبد الناصر ، فإذا هى تهوى بالرجل ونظامه إلى أسفل سافلين !...

وعجبت لهذا الفتى اللبنانى وحيرتنى أفكاره ، حتى عثرت على سطور فى كتابه ذكر فيها الشيزوفرينيا — أى انفصام الشخصية — وعندئذ خرجت من الحيرة وفرغت من التعجب ، فلا شك أن ذلك الشاب اللبنانى يتناول كثيراً من المعلبات ويقصر غذاءه عليها . فقد حدثنا علماء النفس أن انفصام الشخصية ينتج فى ظروف كثيرة من الإسراف فى تناول المعلبات؟! ...

ومضيت أقرأ الكتاب فهو متعة فى (الدّش) والتناقضات ، ولم أغضب من الألفاظ السوقية التى جادل بها من زعم أنهم المفترون على عبد الناصر ،

فليس لدى هذه المدرسة الناصرية القذافية إلا الشتم والسباب ، وليس فى جعبتها من العلم والمعرفة والدراسة الموثقة العميقة ما يؤهلها للمناقشة الجادة الرصينة فهى معذورة إن تحصنت وراء القذف والسباب !

ومضيت أقرأ الكتاب ... وكانت مفاجأة لى حين وضح من سياق الحديث أن مؤلفه صحفى مصرى انطوى على حقد دفين للاتحاد الاشتراكى الذى نقله من صحيفته إلى وظيفة أخرى لم يكن عنها راضياً ، وفى ذلك كتب وأفاض .

وكنت وأنا أقرأ الكتاب ، أبارك لحكومتنا هذه الحرية التى سمحت بها للبنانى أن يسب نخبة من المصريين فى ألفاظ يعاقب عليها القانون ، ولكن بعد أن عرفت أن المؤلف صحفى مصرى ساورنى الشك فى أن الحكومة سمحت لأموال القذافى بأن تدخل البلاد ...

سب المؤلف عشرات من الناس ، وغمز المسئولين ولم يذكر القذافى بكلمة سوء ، مع أن العقيد — يوم صدر هذا الكتاب — كان قد بلغ قمة السفه فى مهاجمة مصر وجيشها ورئيسها ، وتقيأ من العبارات الوقحة السوقية ما كان يجب على هذا الصحفى أن ينبرى لها بما عنده من حصيلة لا تقل سوقية ووقاحة عما عند القذافى وألسنته الحداد ، وهو بما فطر عليه لن يلقى عناء فى مواجهتها ، وقد زوده القدر بسلاطة يحسد عليها ويمكن أن يستفاد بها فى مثل هذه الظروف والمناسبات ! ...

فهل وراء سكوته من خبىء ؟ ...

لم يهز شعرة فينا كل ما كتبه عنا المرتزقة اللبنانيون والشيوعيون ،

فنحن نعلم من أين يمولون ، ونعلم أن ذلك التمويل يجيء مرة من غربى لبنان حيث يغدق القذافى بملايين الجنيهات على محررى الصحف والكتب اللبنانية الصفراء ، ويجيء التمويل مرة أخرى من شرقى لبنان حيث تدعم الماركسية عملاءها بسخاء .

لم نهتم بعملاء القذافى لأن صحفهم وكتبهم فارغة قليلة الرواج ...

ولم نهتم بعملاء الشيوعية وكلامهم أحاج وفوازير ، فقد هاجمون مدعين أننا أعداء الثورة والوحدة وأنهم جاءوا «ليشجبوا المفاهيم التصفوية» ويعلمونا أن «فهم المشاجيب الجهوية وتكريس الأطروحة الوحدوية الشقيقة تحقق الوحدة النضالية » .

وهذا بالطبع كلام واضح ومفهوم ؟! ...

وقد نصحت بأن أهمل نقد كتاب (عبد الناصر المفترى عليه) وأن أضمه ترفعاً إلى كتب وصحف بيروت التى أغفلت الرد عليها بيمينها ويسارها غير أن الكتاب صدر فى مصر ، وربما يقع مصادفة فى يد أحد فيظن بنا الظنون ، ونحن لم نعرض برفق لتجربتنا الثورية فى كتابينا (رسائل من نفاقستان والوسواس الخناس) لنفاجأ بنقد لهما لحمته الكذب وسداه القحة وسوء الأدب .

ونحن لا نرد على الكتاب لأهمية كاتبه أو أهمية مضمونه وإنما نعلق عليه لأنه مجموعة من الادعاءات و الافتراءات على أهل اليمين يرددها « أبناء العم» من شيوعيين وناصريين وقذافيين ، فى مصر وفى بيروت ، ومن واجبنا وقد وقع فى يدنا هذا السجل الحافل بالأكاذيب أن نرد على « أبناء العم »

مجتمعين فى هذا الكتاب الذى نزت فيه قلوبهم بألوان من الحقد والكذب والاختلاق والتضليل .

وأول ما لفت النظر فى هذا الصغار أن المؤلف زعم أن « الأحقاد الشخصية » أملت علينا ما كتبنا فى نظام عبد الناصر .

ولا أدرى دوافع هذه الأحقاد الشخصية ؟ إننى لم ألتق قط بالرئيس الراحل ، ولم أره إلا فى الصحف والتليفزيون ، ولم أتعامل معه لا فى وظيفة أو وزارة أو صحيفة من صحفه ، ولم أكن يوماً عضواً فى اللجنة المركزية لأجتمع به أو عضواً فى مجلس الأمة لأسعد بلقائه ، ولم تربطنا به قرابة أو صلات نسب أو معرفة حتى تترسب فى نفوسنا الأحقاد الشخصية ؟..

وهذا أول كتاب يفتقد فيه القارئ أمانة المؤلف فيما كتب أو نقل ، فإنه ينقل ما كتبناه نقل من غيبته الحشيشة فيذكر أول الآية « ولا تقربوا الصلاة ... » ويغيب عن آخرها ... « وأنتم سكارى » .

يقول إننا :« ضد الثورة صراحة فى كل ما اتخذته »وقوله هذا افتراء علينا ، والصحيح أننى لم أرض عن كل ما صنعته الثورة ومثلى فى هذا الرأى مئات الألوف ولا أقول الملايين ، غير أن هناك ما أرضانى وقد ذكرته فى معرض الرسائل التى تضمنها كتابى رسائل من نفاقستان (١) .

ويتطرف الكاتب ثم يتعالى وهو يعرض لرأينا فى تقرير ضرائب تصاعدية على أصحاب الأرض بدلاً من مصادرة أراضيهم إلى أن يوزعوا

---

(١) راجع رسائل من نفاقستان طبعة ثالثة ص ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧

هذه الأرض خلال عشرة أعوام بالبيع أو الهبة، وهو رأى كان يراه بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة ، والحكومة الأولى التى جاءت بها الثورة ، وقطاع عريض من الرأى العام فى بلادنا .

وقد عاب علينا المؤلف أننا نقدنا فى كتابنا الأول مصادرة أراضى المجاهدين الأحرار ولم نقدم له « نماذج » لهؤلاء الأحرار المجاهدين .

لقد كان كتاب (رسائل من نفاقستان) أدباً رمزياً لم يذكر فيه اسم إنسان ، لذلك لم نفصح عن اسم واحد من هؤلاء المجاهدين الأحرار الذين حصلوا على الأرض والمال بعرق الجبين .

أما اليوم والملفات تفتح فى حرية وحرارة ، فانى أقدم بعض الأمثلة لهؤلاء الأحرار الذين سرقوا أراضيهم وأموالهم ، فأذكر للمؤلف ولغيره من المخدوعين أن محمد حسن العبد قد صادروا له ألف فدان وهو مقاول عصامى بدأ حياته عامل بناء صغير يقف على « السقّالة » وجه النهار فى قر الشتاء وحمارة القيظ ، ومن عرق جبينه اشترى هذا القدر من الأطيان ...

ومثله عبد العزيز رضوان وقد بدأ حياته حمالاً فى إحدى محطات السكك الحديدية ، واقتنى بعرق الجبين الأراضى والأملاك ...

ونذكر من بين المجاهدين الأحرار عماد نايف ، وقيل إنه بدأ حياته حمالاً أيضاً ، وجاهد وعرق حتى كانت له مصانع للزيوت والصابون ، وبنى من كده وجهده مستشفى فى طنطا لخدمة مواطنيه وهو من أعظم المشافى فى البلاد ، وقد خرج من مصر إلى بيروت خالى الوفاض به مصادرة كل ما يملك من أرض وبيوت ومصانع ، وهناك فى بيروت

ومن عرق الجبين أيضاً — أنشأ مصانع مماثلة لما كان يملكها فى مصر ، ومن معابثة القدر أننا نستورد لمصر من مصانعه فى بيروت أشياء وأشياء ؟! ...

وليذهب الفتى المؤلف إلى أضابير المصادرات والحراسات فسوف يجد مئات الأسماء بل الآلاف قد أوذوا فى أرزاقهم وهم العصاميون الأحرار الذين بدءوا من القاع وبسط الله لهم الرزق بلا حساب ، فأصبحت لهم أراض لم يسرقوها ، وتعتبر مصادرتها عملاً لايقره عرف ولا دين .

إن الله يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك به والإضرار بالناس ..

ويتساءل الكاتب أين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تؤثم رجال الثورة وهم يصادرون أراضى أحرار الناس ؟

ونقدم للكاتب السئيل حكم الله سبحانه فيما فعل الثوار ، فقد قال فى كتابه العزيز : (ولا تأكُلوا أمْوالكُم بينَكم بالباطِلِ وتدْلُوا بها إلَى الحكَّام لتأكلُوا فريقاً من أمْوال النَّاسِ بالإثْمِ وأنْتم تعلَمُونَ) (سورة البقرة : ١٨٨) .

ثم قالَ : (يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا تأكُلوا أمْوالكُم بينكم بالباطل) (سورة النساء : ٢٩) .

ثم قال : (إنَّ الذينَ يأكلونَ أمْوال اليتَامى ظُلماً إنَّما يأكلون فى بُطُونهم ناراً وسَيصْلَون سعيراً) (سورة : النساء : ١٠) .

ثم قال : (وأكلهم أموال الناس بالباطل) (سورةالنساء : ١٦١) .

وهناك عشرات الآيات البينات التى تلقم المؤلف وأمثاله ألف حجر حين يزعم أن الدين دعا إلى سرقة الناس وأكل أموالهم بالباطل ...

وفى الحديث النبوى الشريف يقول صلوات الله عليه : (من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين) (مسلم : ١٦١).

وعندى عشرات الأحاديث المماثلة لهذا الحديث الشريف التى تجرّم من يأخذ أرض الناس بغير حق أو يستولى على أموالهم قسراً ، وتعتبر ذلك جريرة لا يرضى عنها خلق أو دين .

وفى هذا الخط يؤيدنا شيخ الإسلام حين يقول: «وإذا كان الأصل فى الإسلام هو حرية الفرد فى المال فى إطار المبادئ العامة للإسلام فإن الشيوعية تعارض ذلك فى شدة . لقد استولت على الثروات والملكيات فى جبروت وقهر ولم تسمح للفرد بالحرية فى المال والثراء . فإذا كان الإسلام والشيوعية فى تعارض فى العقيدة فإنهما فى تعارض فى الاقتصاد » (١) .

ولولا جهل المؤلف بالإسلام لما احتجنا إلى كل هذا الحوار ، فلعله فهم ، فإذا عجز بعد ذلك عن الفهم ، فما ضرنا كما يقول سعد زغلول إذا لم يفهم البقر ؟ ! ...

ونتجاوز عن ألفاظ المؤلف السوقية وهى كل حصيلته من الفهم والتمييز مثل قوله « إنه الحقد المدمر المجنون على الثورة وقائدها حقداً شخصياً » ثم نتجاوز عن التشكيك فى وطنيتنا بقوله « إننا نقدس المستعمر » وإننا « خونة » وإننا « نحكم الضغينة والحقد والعوامل الشخصية فى المسائل السياسية والقضايا الوطنية » .

---

(١) من حديث الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر فى آخر ساعة فى ٣٠ يوليو ١٩٧٥

ويشاركنا الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور أحمد شلبى فى الحقد المدمر والمجنون على الثورة وقائدها ، وفى تقديسنا للمستعمر ، وفى الخيانة وتحكيم الضغينة والعوامل الشخصية فى النظر للقضايا الوطنية !

كل ذلك لأننا نقدنا الرئيس الراحل حين ورط البلاد فى حرب السويس سنة ١٩٥٦ وقد بنينا رأينا على أن الحرب لم تؤت ثمارها لأسباب منها

أولاً : أن القناة كانت ستعود إلى مصر فى أقل من عشر سنوات دون حرب ودون تعويضات .

ثانياً : أن تأميم القناة للاستعانة بدخلها فى بناء السد العالى كان يمكن إرجاؤه للأسباب التى أوردناها فى (أولاً) ولأن الروس تكفلوا بالتمويل .

ثالثاً : إذا صح ما ذكره المؤلف بأن حصيلة دخل القناة فى السنوات التالية لحرب السويس كانت ستمائة مليون جنيه ، وأن التعويضات قد بلغت مائة مليون جنيه فقط ، وبذلك ربحنا خمسمائة مليون جنيه ، فنذكر له أن خسائرنا كانت أفدح جداً من مكاسبنا ونبصره بذلك فيما يلى :

أولاً : خسرنا معدات حربية تركناها فى الميدان جديدة لم تستغل بنحو ثلاثة آلاف مليون جنيه وقد باعتها إسرائيل لبعض دول إفريقية .

ثانياً : راح من شهدائنا فى تلك الحرب التى لم يكن لها ضرورة وليس فيها تكافؤ ونتيجتها معروفة ، عشرات الألوف بين قتيل وجريح .

ثالثاً : كانت هزيمتنا فضيحة لا يتحمل وزرها جيش مصر ، لأن الذى حارب فى معركة السويس سنة ١٩٥٦ كان جيش عبد الناصر ، والذى حارب سنة ١٩٦٧ كان جيش عبد الحكيم عامر ولم يحارب جيش مصر إلا فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

رابعاً : فى حرب السويس سنة ١٩٥٦ تقهقرنا بلا نظام ودمرنا مصافى البترول وتخلينا عن الأراضى والمدن والقرى فى هزيمة هى مضرب الأمثال بين الهزائم ، وإن ذكرت صحف السلطة وغنت إذاعتها بأنها كانت عناوين البطولات ...

خامساً : وهناك مسائل مادية أخرى لم تدخل فى حساب المؤلف وهو يجمع ويطرح ، فقد نسى أن تطهير القناة وإعادة صلاحيتها للملاحة كلفنا عشرات الملايين من الجنيهات ، فضلاً عن كساد مدنها التى قاطعتها قوافل السفن وهى تعبرها ، وحرمت بذلك رزقها ، ولم تتجاوب معها هذه القوافل إلا بعد أن فتحها وعمرها الرئيس السادات فى يونيو ١٩٧٥ وأقبل عليها رجال الأعمال عرباً وفرنجة من كل فج عميق .

إن مؤلف الكتاب قد فاته أننا ننقد القرار التشنجى الذى صدر بتأميم القنال ولا نتحدث هنا عما كان يمكن أن يكون عليه موقفنا لو كان الأمر بيدنا .

لو كان الأمر بيد مصر ما غامرت بتأميم القنال ، ولكن الأمر كان بيد الرئيس الراحل وحده ، فقد كان وحده صاحب القرار ، وعليه وحده أن يتحمل المسئولية أمام التاريخ وأمام الضمير العام ...

أما عن الانفتاح والاشتراكية ، فقد خلط جهل المؤلف بين الاشتراكية والشيوعية ، فانجلترا بلد اشتراكي وحكومتها أممت كثيراً من مصادر الإنتاج بيد أنها لم تصادر أملاك الناس وأرزاقهم .

إنجلترا الاشتراكية لم تفعل مثلما فعلنا ، وقامت مثلاً بوظيفة الندل

(الجرسون) يقدم القهوة والشاى وكؤوس المنكر للمواطنين ويعد لهم موائد الغداء والعشاء فى محل (لابّاس) فى شارع قصر النيل .

ولم تدخل إنجلترا الاشتراكية منافسة فى بيع الدجاج كما هو حاصل عندنا فى المجمعات ، أو زاحمت القطاع الخاص فى بيع الأحذية كما هو جار فى محلات (باتا) أو نزلت سوق المانيفاتورة كما هو واضح فى بنزايون والصالون الأخضر ...

والاشتراكية فى إنجلترا لا تحارب القطاع الخاص فيما تخصص له هذا القطاع من أعمال وتجارات ، ولا تعوق نشاطه بالقوانين المجحفة إذا أراد تصديراً أو استيرادا ، وحرية التجارة مكفولة للقطاعين العام والخاص على السواء ...

نرى ذلك فى إنجلترا وفرنسا وأكثر دول الغرب من الشمال إلى الجنوب ، ومعظمها دول اشتراكية ، ولكنها لم تقل قط بما ذهب إليه المؤلف العالم فى الاقتصاد ، والذى يرى أن الاشتراكية هى امتلاك الدولة لكل نشاط اقتصادى فى البلاد :

الشيوعية وحدها — والمؤلف من أنصارها — هى التى كان يراد لنا أن نمضى فى سياستنا الاقتصادية على هواها حتى نصل إلى الاقتصاد الموجه العنيف الذى يقتل كل نشاط فردى ويقضى على كل جهد شخصى ، الأمر الذى تداركته الدولة أخيراً ، وانتقلت إلى اقتصاد متفتح منطلق يسمح برءوس الأموال الأجنبية والعربية ويرحب بجهد كل مواطن يجد ويجتهد على أن ينال جزاء جده واجتهاده ، آمناً على نشاطه وكفاحه ، لا يهدده

سجن أو حراسة أو مصادرة ...

ويقول المؤلف عن كتابينا (نفاقستان والوسواس) إنهما « مليئان بالقصص والحكايات عن الاختلاسات والمفاسد والسرقات والإرهاب والدكتاتورية وهى مزيج من الإشاعات والتشنيع وحكايات المقاهى » ثم يزعم أننا لم نقدم أى دليل على ذلك ؟

وأحيل المؤلف إلى حكم القضاء الذى صدر لصالح المستشار جريشة ، وهو واحد من عشرات الألوف من المعتقلين الذين عذبوا فى عهد عبد الناصر ، وفى حيثيات هذا الحكم بيان بقصص الإرهاب وشرح لأدوات التعذيب ووصف مفصل للأعمال التى قام بها زبانية ذلك العهد فى تعذيب الناس وإهدار كرامة الإنسان (١) .

وأحيله إلى كتاب النائب العام السابق محمد عبد السلام عن الاختلاسات والمفاسد والسرقات والرشاوى وهى جميعاً قضايا مدعمة بالوثائق والأسانيد وقد رفض ذلك العهد تقديم أى واحد من هؤلاء المختلسين المفسدين اللصوص المرتشين إلى المحاكمة (٢) .

ونحيله أيضاً إلى حديث المحامى العام لجريدة الجمهورية وهو تحت عنوان (الحقائق العامة التى يكشفها المشرف على تحقيقات قضايا التعذيب) والذى ختمه بقوله: «أصبحت أعتقد أن تحقيق هذه القضايا والاهتمام بها بالإضافة إلى أنه عمل تقتضيه العدالة حتى يؤخذ بالقصاص ممن ارتكب

(١) فى الزنزانة تأليف المستشار على جريشة ١٩٧٥ .

(٢) ذكريات عصيبة بقلم النائب العام السابق محمد عبد السلام .

جرماً فى حق أخيه فإنه واجب وطنى لما يتضمنه من دروس عن الماضى للحاضر والمستقبل يتلقاه كل من بيده السلطة حتى لا ينحرف بها وأنه إذا لم يتق الله فى عمله ويخشاه فإن عدالة السماء فى انتظاره وعقاب الأرض له بالمرصاد » .

ويعتذر المحامى العام عن صراحته التى سجلناها فى السطور السابقة ، راجياً أن يغفر له منصبه ذلك ، فقد جاش بها صدره حين صدم بوقائع التعذيب التى « لحقت بكثير من المواطنين » (١) .

وأخيراً نحيل المؤلف والقارىء معاً إلى فصل (مالكم وفرعون) وهو فصل مسجل فى كتابنا هذا ، وقد نشرنا فيه فقرات من كتاب المؤلف وهو يتحدث عن طغيان نظام عبد الناصر ومفاسده والمسئولين التافهين وحكم الفرد وكراهيته لأى دور يقوم به الشعب ، وغير ذلك من تأثيم لعهد الرئيس الراحل ، وهى أحكام قاسية ضد النظام الناصرى سجلها مؤلف « عبد الناصر المفترى عليه » ثم يتهمنا نحن بالإشاعات والتشنيع ؟! ...

إننا لم نقل فى ذلك العهد السعيد أكثر مما قال المؤلف ، ومن هنا كانت وثائقنا ووثائقه ... من قهوة واحدة ...

أما اتهامنا بأننا نعيب على البعض نفاقهم لعبد الناصر وننافق فى الوقت نفسه السادات — وإن خانته الشجاعة فلم يذكر اسم الرئيس — فتلك كذبة ضخمة وفرية مردودة ، لأننا حين نذكر للسادات إخلاءه السجون والمعتقلات ، وأنه رد الحقوق لأصحابها الذين سرقهم ونهبهم العهد الماضى ،

---

(١) الجمهورية فى ١٤ أغسطس ١٩٧٥ الصفحة التاسعة .

ونسجل بالحمد والثناء هذه الحرية التى نستمتع بها فى عهده . لا يعنى ذلك نفاقاً، لأننا بطبعنا لا نعرفه ولم يؤثر عن تاريخنا أننا نافقنا الملك أو عبد الناصر ، ولم يكن هناك مبرر لننافق هذا أو ذاك ، فقد عشنا سلاطين ، لأننا دائماً بعيدون عن السلطان . وإنما نحن نؤرخ لعهد نعيشه ونرى آثاره الطيبة فى معظم المجالات ، وليس لنا عند السادات حاجة وليس له علينا يد أو معروف ، فإذا قلنا فيه كلمة حق فإنما نقولها لوجه الله والتاريخ .

ولن أطارد المؤلف فى نقده لكتابى بعد ذلك ، فقد فندت كل ما جاء فى هذا النقد ، ولا علينا من أنه يخلط بين الرقابة على الكتب والرقابة على البرق والهاتف والبريد ، فزعم — دون أن يفهم ما قرأ — أننا ناقضنا أنفسنا ، فذكرنا فى رسائل من نفاقستان أن الرقابة رفعت ثم قلنا فى الوسواس الخناس إنها باقية ..

والذى لم يفهمه المؤلف أن الرقابة رفعت عن البرق والهاتف والبريد كما جاء فى نفاقستان وأنها باقية على الكتب كما جاء فى الوسواس ...

ومن الكلمات المبتذلة التى كررها المؤلف فى كتابه وأقحمها فى شتائمه بمناسبة وغير مناسبة ، كلمة (رجعية) فكل من طالب بالحرية أو الديمقراطية أو قيام الأحزاب رجعى ، وكل من دعا إلى اقتصاد حر أو متفتح رجعى ، ورجعى كل من ينقد الحكومة فى منافستها للقطاع الخاص بتعيينها الأندال فى البارات والقهوات وبيع الأقمشة والأحذية والدجاج .

ما التقدمى من أمثاله الماركسيين وأبناء عمهم الناصريين فيدعون إلى سيطرة الشيوعية على البلاد ، لتؤمم كل شىء فيها ، وتحكم الشعب بالعصا

والكرباج ، وينفرد أصحاب الفكر والدعوة وأذنابهم بالسلطان ومغانم السلطان ، ويقيموا المودة مع دول الشرق وحدها ليصبحوا تابعين لها سابحين فى فلكها ،أما من يقرىء الغرب السلام فذلك هو الخائن المنحرف الرجعى الجبان ، عدو الشعب وعدو التحولات الاجتماعية والمنجزات الفرعونية ،وخصم المد الثورى ، وغير ذلك من ألفاظ شيوعية واضح منها سقم النقل والترجمة ورتابة المعانى فى غير انسجام ...

ولم ينج من وقاحات واتهامات مؤلف هذا الكتاب كثير من أعلام مصر الذين لهم فى مواقعهم مقام الصدارة كالأستاذ توفيق الحكيم والأستاذ الدكتور أحمد شلبي والأستاذ مصطفى أمين والأستاذ على أمين والأستاذ أحمد أبو الفتح .

وإنى لأعلم أن أياً من هؤلاء الأعلام قادر على أن يشرح الفتى وكتابه بأدق وأقسى وأمتع مما أستطيع ، وإنهم لقادرون بوضعه على السفود ليستوى منطقه ويُطهر من بذىء القول وعبارات السوقة والدهماء التى احتوى عليها كتابه الفطير .

وأرانى سعيداً حين آخذ هذا الواجب عنهم دون استئذانهم...

وإنى له ولعشرات مثله ، قلماً وطبعاً ونشرا ...

ولا أريد أن أتعقب السفسطة التى سجلها المؤلف فى فصل توفيق الحكيم غير أننى عجبت للتساؤل الغريب الذى وجهه للحكيم عما تحدث عنه الرجل فى كتابه (عودة الوعى) من فقدان المعارضة والرأى فى عهد عبد الناصر ، عما سمعه الحكيم عن أساليب التعذيب الجهنمية و مطالبته بفتح تحقيق

فيها ، فيقول « وأين كان هو ؟ ماالذى فعله ليعبر عن معارضته لكل ذلك ويسجل موقفاً يحسبه له التاريخ » .

وما أسخف السؤال ؟

وأسخف منه قوله « إن الإنسان ليشعر بالأسى العميق حين يقارن بين موقف الحكيم ومواقف آخرين مثل برتراند رسل فى إنجلترا وجان بول سارتر فى فرنسا وغيرهم من المفكرين والأدباء الذين عبروا عن معارضتهم بمختلف الأشكال . بالتظاهر . بالجلوس فى الشوارع احتجاجاً على ما اعتبروه خطأ » .

ونجيب السيد السند على سؤاله فنذكر له ما فاته وما لا يعلمه وهو أن راسل وسارتر وغيرهما مواطنون فى بلاد متحضرة يسود فيها القانون والناس فيها أحرار ، ولا يملكون فقط حق الاعتراض بالجلوس فى الشوارع أو التظاهر بالهتافات ، بل إنهم يخطبون فى حديقة (هايد بارك) فى لندن ، ويلعنون الملكة ويسبون رئيس مجلس الوزراء بألفاظ تشبه ألفاظ صاحب عبد الناصر المفترى عليه وهو يناقشنا ، وهى ألفاظ بذيئة نابية يعاقب عليها القانون .

أما فى عهد عبد الناصر فإن المجنون هو الذى يقدم على الانتحار ...

ويتساءل المؤلف ، لماذا لم يكن الحكيم مجنوناً ؟

لأن عبد الناصر سوف يرد على تظاهر الحكيم وجلوسه فى الشوارع باعتقاله وخوزقته (١) .

---

(١) أى إجلاسه من الشرج على الخازوق وهو قضيب أشبه بالسيف ، وكان ذلك من ألوان التعذيب السائدة فى مصر والعالم حتى أوائل القرن التاسع عشر .

وهو لون من التعذيب يشبه ما يمارسه زبانيته وهم يسوسون أمور المعتقلين فى السجون !!..

ويزعم المؤلف أن سن الحكيم وهى الستون إذ ذاك كانت كفيلة بحمايته من المعتقلات والسجون ، ونسى الفتى النابه أن سيد قطب سجن وعذب وأعدم وهو فى مطلع السبعين ، وأن الهضيبى اعتقل وأهين وضرب وعذب وقد تجاوز الثمانين ...

وقد نال ما نال قطباً والهضيبي من إهانات وتعذيب كثير من أعلام مصر ومجاهديها وقد بلغوا الستين أو تجاوزوها من أمثال الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية الوفدى وإبراهيم عبد الهادى زعيم الحزب السعدى ، بل أهين وعذب كثيرون من عامة الشعب من العمال والفلاحين الذين تجاوزوا عن العمر السبعين والثمانين لأنهم قالوا نكتة أو همسوا بتعليق على نكبة البلاد والعباد ، ولم يتعرضوا للسلطان بمظاهرة ، ولم يسدوا الطريق بالجلوس فى الشوارع كما كان يريد لهم أن يفعلوا صاحب عبد الناصر المفترى عليه .

ويتعجب المؤلف كيف لم يحتج الحكيم على عبد الناصر لاعتقاله العديد من العمال والطلاب فى تظاهر سخطاً على الأحكام الناعمة التى صدرت ضد لمسئولين فى الطيران عن كارثة الهزيمة المنكرة فى سنة ١٩٦٧ بينما احتج لدى السادات على اعتقال الطلبة سنة ١٩٧٣ وقابل الرئيس وتحدثا فى الأمر معاً !

ولم التعجب يا فتى ؟!

السادات يحكم فى ظل الدستور وسيادة القانون وفى جو من الحرية يتيح للأحرار أن يجتمعوا به ويحاجوه ...

وعبد الناصر يحكم بالحديد والنار ، وليس فى خلفياته دستور ولا قضاء ولا قانون ...

ثم يعيب المؤلف على الأستاذ توفيق الحكيم أنه لم يحتج لدى عبد الناصر على طرده مع بعض زملائه الصحفيين من مواقعهم حين تولى الدكتور حاتم وزارة الإعلام سنة ١٩٦٤ ؟

لأنه يا أخى ... عبد الناصر .

ويتساءل كيف فات الحكيم أن يحتج فى قضايا عبد الحكيم عامر وصلاح نصر وشمس بدران ؟

لأنه يا أخى ... عبد الناصر ؟

ويعاتب الحكيم فى شدة على أنه لم يحتج على العزل الجماعى للقضاة ؟

لأنه يا أخى مرة ثالثة وأخيرة ... عبد الناصر ؟

وهذا الكاتب الشجاع الذى يعيب على توفيق الحكيم تقاعسه عن الاحتجاج ، ويطلب منه أن يقوم وحده بمعارضة عبد الناصر . لماذا لم يستغل شبابه وشجاعته ويتولى هو الاحتجاج على كل ما فات الحكيم الاحتجاج عليه؟ ...

وهل كان يمكن لهذا الفتى الشجاع أن يسجل فى عهد جمال عبد الناصر وفى وجوده من رأى نشرناه له فى هذا الكتاب فى فصل (مالكم وفرعون) وفيه وصف المؤلف عبد الناصر بأنه « عدو للعمل السياسى المنظم وللدور

الجماهير والأحزاب » وأنه اعتمد على « تنظيم رجعى هو الاتحاد القومى » وأنه اختار لمعاونته « شخصيات هزيلة وتافهة كل مؤهلاتها الولاء المطلق للشخص » إلى غير ذلك من آراء جريئة وشجاعة ونبيلة ... ولكنها للأسف الشديد لا تحسب لــه فى التاريخ ، لأنهــا كتبت ونشرت بعد أن مات عبد الناصر ومضت على موته سنون ؟!...

يا فتانا الجرىء الشجاع !

هل بلغتك قصة الرسالة التى كتبها الحكيم لعبد الناصر قبل وفاته بشهور؟

لقد كتب الرجل رسالة رقيقة عذبة ليس فيها احتجاج بل هى فى جملتها رجاء لصالح الرئيس ، كتبها وهو يقدم رجلاً ويؤخر رجلا ، ينصح بأن يبقى الرئيس على هيكل بعيداً عن منصب الوزارة حتى لا يفتقده قراؤه فى الأهرام (١) .

رسالة رقيقة عذبة منطقية مفيدة للرئيس ، كتبها صاحبها ثم قرأ آية الكرسى قبل أن يعطيها لزوج ابنته حاتم صادق ! ليسلمها بدوره للرئيس ليقرأها وحده ولا يراها أحد ولا تنشرها جريدة ولا يطلقها مذياع ...

وقرأ الرئيس الرسالة وأهملها ثم نقل إليه أن الأستاذ لطفى الخولى وقرينته ، وسكرتيرة الأستاذ هيكل وزوجها قد علموا بمضمون الرسالة ، فقامت الدنيا وقعدت .

دعى الأربعة إلى التحقيق أياماً وليالى متصلة ، وكانت المخابرات قد سجلت لهم ما دار من حديث عن الرسالة وهم فى جلستهم العائلية ، ولم يكن

---

(١) توفيق الحكيم . وثائق فى طريق عودة الوعى .

فى حديثهم ما يشين أو يضير أحداً .

ثم ماذا؟ حولت رسالة الحكيم إلى النائب العام بخطاب من سامى شرف ، ثم قبض على الأربعة وأمضوا فى السجن ستة أشهر بلا تحقيق ، وكأنهم كانوا يتدارسون منشوراً ثورياً كتبه الحكيم يدعو فيه للثورة على عبد الناصر ونظام حكمه البوليسى البغيض ؟

ثم تمضى المؤلف فى سفسطته فيعيب على الأستاذ توفيق الحكيم الذى ينقد الحكم الناصرى بأسلوبه الموضوعى البناء ، ويرى أنه بذلك يقف إلى جانب الرجعية ، ويصف المؤلف صاحبها فى أدبه المأثور بأنه « دجال ونصاب وكذاب » . وهذا كلام بذىء لا منطق له ، نسمع مثله فى الحوارى ينطلق من أفواه السوقة من النساء فلا يستحق منا الرد أو التعقيب .

ويجىء دور مصطفى أمين ...

إنه يهاجمه ويصفه بالعمالة لأنه صديق الأمريكان ...

لقد نسى المؤلف أن صداقة الأمريكان كانت حجر الزاوية فى تفكير الثوار عندما قاموا بثورتهم ، وآية ذلك أن واحداً من زعمائهم وهو جمال سالم اعترض على ترشيح السنهورى لرئاسة الوزارة لأن أمريكا لن ترحب بهذا الاختيار (١) .

لقد استمرت الثورة لفترة معلومة على مودة وصلات قوية بالسفير الأمريكى وكان لها مندوب « سام » عند السفارة هو السيد على صبرى :

---

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو لحمروش ص ١٨٢ .

وكذلك كان الأستاذ محمد حسنين هيكل على صلات طيبة بالأمريكان وتربطه صداقة قوية ببعض رجال السفارة فى القاهرة (١) .

ولم يتهم أحد جمال سالم أو هيكلاً بالخيانة أو العمالة ، وأنه يستحق كل هذه النعوت التى خلعها المؤلف فى كتابه على مصطفى أمين ، والتى يرددها بشأنه « أبناء العم » من ماركسيين وناصريين وقذافيين .

ويصدر المؤلف أحكاماً بالإعدام على كل من قال كلمة طيبة عن عهد الملك فى عهد الملك ، ويقول عن ذلك إنه نفاق رخيص وإن صاحبه انتهازى وكافر وملحد وزنديق .

لقد نقل لنا شيئاً مما كتبه مصطفى أمين ليدلل على أنه كان إلى جانب الملك فى معركته مع زعيم البلاد العظيم مصطفى النحاس .

إنه لا يعلم ، ولعله كان حدثاً صغيراً لم يشب عن الطوق بعد ، أن الخلافات السياسية فى ذلك الوقت واصطراع الآراء إذ ذاك كانت طابع الجيل الحر الذى عشناه ، وأن أنصار النحاس كالوا لمصطفى أمين الصاع ألف صاع ، ولم نكن نحن إلى جانبه فى ذلك الصراع ؛ بيد أننا لم نر فيه قط أنه خائن ، ونطارده بالقول المقذع والعبارات النابية كما يعامل المؤلف كل من يخالفه فى رأى من الآراء .

وهل كان مصطفى أمين وحده الذى رأى فى الملك رأياً حسناً ؟
لقد خطب أستاذ عالم وأديب خالد — طيب الله ثراه — خطب فى أخريات عهد الملك فى افتتاح معهد الصحراء على ما أذكر ، وبدأ موجهاً

(١) المصدر السابق ص ٢٣٩ .

الكلام إلى الملك « سيده وابن سيده وحفيد سيده » بيد أننا غفرنا لأستاذنا الجليل هذه المحاملة الثقيلة على نفوسنا ، لأن له أمجاداً فى ميادين الفكر والعلم ، ومنهجاً فى اشتراكية التعليم سوده بقانون فى آخر حكومة دستورية حكمت البلاد .

ولم نصف أستاذنا العظيم بالنفاق حين قال فى خطاب آخر كلمة حلوة فى محمد نجيب ، وحيا بعد ذلك عبد الناصر وشبابه ، وقعد به المرض عن مزيد من المدح والثناء .

إن أعلام مصر فى كل موقع من مواقع العلوم أو الفنون أو الآداب ، لهم فى هذا الميدان هنات ، ربما فرضتها الظروف أو لعلها من طبائع الأحياء.

لقد غنت أم كلثوم وغنى عبد الوهاب للملك أكثر من أغنية فى أكثر من مناسبة ، كما غنى كلاهما ، وبحرارة ، ومثلهما عشرات من مطربى مصر غنوا جميعاً مئات الأغانى فى عبد الناصر ومنها أغنية ... لبيك .. لبيك عبد الناصر .. وهذا دعاء اختص به الله سبحانه ومن جاوزه لبشر كان ذلك منه قمة الكفر والإلحاد .

وهذا الذى يعيبه المؤلف على مصطفى أمين لم يكن منذ مطالع القرن العشرين حتى أيامنا المعاصرة مقصوراً على زيد أو عمرو من الناس ، وحتى أعلام الدين جاملوا أو نافقوا ، فقد كانت للملك صورة رتيبة أسبوعية تطالع بها الصحف صباح كل سبت مسجلة صلاته فى هذا المسجد أو ذاك ، يقف فيها مرسل الذقن وفى شرف استقباله شيخ الأزهر والمفتى ورهط من أصحاب العمائم حملة الهدى وسدنة الإسلام ، وكانت سيرة الملك وقتئذ تنقض الوضوء وتفسد الصلاة ؟! ...

وحتى الجيش لم يسلم من النفاق فى عهد الملك ، فما من فرصة أتيحت إلا وكان ينافس فى كثير مما ذكرناه ، وبينما كانت القاهرة تحترق فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ كان الجيش يتناول الغداء عند السلطان !

إذا أردنا صورة للنفاق ، فلنرجع إلى الأيام التى عشناها منذ قامت الثورة ، فقد كانت زاخرة بأروع ألوان النفاق ...

أما مصطفى أمين فقد كانت له آراؤه السياسية التى اختلفت مع آراء حزب الوفد الذى سادت مبادئه البلاد ، ولم يؤجر كبعض كتاب اليوم من وراء الحدود ، وخاصة كتاب اليسار وكتاب القذافى خصم مصر والسادات ، بل كانت خصومته للوفد نابعة من ذاته ، ملتقية فى هواها مع خصومة الملك للنحاس .

وفى خصومة مصطفى أمين للنحاس كتب مصطفى فى سنة أولى سجن ينعى على نفسه تورطها فى خصومة ذلك الزعيم العظيم ويأسف أن كان لها يوماً هذا الاتجاه ...

ومصطفى أمين رجل عام ، فإنه بالرغم من خصومته للوفد كان صديقاً لكثير من أعلام هذا الحزب وفى مقدمتهم فؤاد سراج الدين ، وصديقاً لكثيرين من رجالات الأحزاب الأخرى سواء كانوا يمضون فى خطه أو يقفون لهذا الخط بالمرصاد .

وحين قامت الثورة لم تمض إلا فترة قصيرة واكتسب احترامها وتقديرها وكان من أقرب المقربين إلى الرئيس الراحل الذى انتهت صداقته بمصطفى أمين كما انتهت مع عديد من الأصدقاء بالسجن والاعتقال وأشنع ألوان التعذيب ...

ومصطفى أمين صاحب مدرسة فى تاريخ الصحافة المصرية تخرج فيها آلاف التلاميذ ، ومن بينهم محمد حسنين هيكل ومعظم الذين يحررون صحف مصر الآن على اختلاف مذاهبهم السياسية والاجتماعية .

وقد نشر المؤلف مقالاً لمصطفى أمين أيام الحرب العالمية الثانية لم يجز الرقيب نشره يومئذ ، وكان ذلك فى يوليو سنة ١٩٤٢ ، وفيه يحيي الكاتب الملك فاروقاً بمناسبة توليه سلطته الدستورية ، واعتبر هذا المقال نفاقاً وزلفى ، وأنه — أى المقال — كفيل بأن يسقط اعتبار مصطفى أمين .

لأن الفتى المؤلف كان حدثاً أو طفلاً رضيعاً عند مصادرة هذا المقال لا يعلم أن الملك فاروقاً فى ذلك التاريخ كان يستمتع بتأييد وعطف قطاع عريض من الرأى العام ، لأنه فى تلك السنة أى فى سنة ١٩٤٢ هاجمته الدبابات البريطانية فى قصر عابدين ، وكاد الإنجليز أن يخلعوه عن عرشه لولا أن أنقذه النحاس بقبول الوزارة فى ذلك الحين .

والشعب يكره الإنجليز وهو مستعد للتجاوب مع الشيطان إذا اختلف معهم ، وكان هذا الشيطان الملك فاروق ...

ويختم المؤلف كتابه بأسوأ ما يختم به مؤلف بلغ القحة فى السفه والكذب والتضليل .

لم يجد كلمة سوء يقولها فى أحمد أبو الفتح ، فهو مدرسة فى قوة الخلق وصلابة الفكر ، وقدوة فى نظافة اليد والسيرة واللسان ، ومجاهد يقول كلمة الحق فى غير هيبة أو وجل ، وقد قالها أكثر من مرة لزعيمه النحاس ، وهو مَنْ هو فى ضمير أبى الفتح ومصر والناس ؟

وهو الأمين على سر الثوار حين كانوا يعملون تحت الأرض ، وهو الذى قاد الإعلان والدعاية فى جريدته (المصرى) فى شجاعة فجر قيام الانقلاب بينما انكمشت وذعرت واضطربت أكثر الصحف والمجلات .

وهو أول من قال .. لا .. لأصدقائه الثوار ، وأصر عليها فى شموخ الأحرار فأغلقوا جريدته (المصرى) وصادروا أملاك أسرته واحتلوا شقته وبددوا أثاثها وسرقوا محتوياتها ، ونفى شقيقاه وهاجر هو وبقى شريداً بلا مال أو جنسية عشرين عاماً وبضعة شهور .

لم يجد المؤلف كلمة سوء يقولها من عنده فى أحمد أبو الفتح فاقترض مقالاً بذيئاً من مجلة شيوعية قليلة الانتشار .

وقال المقال شيئاً مضحكاً ، إذ اتهم الكاتب أحمد أبو الفتح بأنه سكير وزير نساء ...

وما من أحد فى مصر والوطن العربى إلا ويعلم أن أحمد أبو الفتح رجل مؤمن بربه يقوم على الصلاة فى أوقاتها ، ويصوم الشهر ويؤتى الزكاة ، وقد عصمه الله عن الزلل ، ولم يذق الخمر فى حياته ، بل يجامله أصدقاؤه فلا يقدمون الخمر على موائدهم إن دعى إلى طعام عند واحد من هؤلاء الصحب الكثار .

وانتهت قصة هذا الكتاب الذى قام على الضلال والتضليل ، ووقف من ورائه أولاد العم من ماركسيين وناصريين وقذافيين .

لم يوفق كاتبهم فى نقاش قضية واحدة ، ولم يوفق إلا فى نشر سيل من القذف والسباب لم يقصره علينا نحن المفترين على عبد الناصر ، بل ضم إلينا عبد الناصر نفسه حين عرض له فى مجال الإكبار والإجلال والتأييد ...

كتب للمؤلف

١ – فى الصحافة

١ – تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية — مكتبة الآداب — الطبعة الأولى ١٩٤٠
مكتبة الآداب — الطبعة الثانية ١٩٥٠

٢ – تاريخ الوقائع المصرية (١٨٢٨ – ١٩٤٢) — مطبعة بولاق — الطبعة الأولى ١٩٤٢
مكتبة الآداب — الطبعة الثانية ١٩٤٢

٣ – تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية — مكتبة الآداب — الطبعة الأولى ١٩٤٤
مكتبة الآداب — الطبعة الثانية ١٩٤٥
مكتبة الآداب — الطبعة الثالثة ١٩٥١

٤ – أعلام الصحافة العربية — مكتبة الآداب — الطبعة الأولى ١٩٤٤
مكتبة الآداب — الطبعة الثانية ١٩٤٨

٥ – حول الصحافة فى عصر إسماعيل (حقائق غير مطوية) — مكتبة الآداب — الطبعة الأولى ١٩٤٧

٦ – جريدة الأهرام : تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة — دار المعارف — الطبعة الأولى ١٩٥١

٧ – جريدة الأهرام : تاريخ وفن — سجل العرب — الطبعة الثانية ١٩٦٤

٨ Etudes Journalistiques En Europe — جامعة القاهرة — الطبعة الأولى ١٩٥١

٩ – دراسات فى الصحافة الأوربية (تاريخ وفن) — مكتبة الآداب — الطبعة الأولى ١٩٥١
مكتبة الآداب — الطبعة الثانية ١٩٥٢

١٠ – أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح فى مصر — مكتبة الآداب — الطبعة الأولى ١٩٥٣

١١ – الصحفى الثائر — روز اليوسف — الطبعة الأولى ١٩٥٥

١٢ – روز اليوسف (سيرة وصحيفة) — سجل العرب — الطبعة الأولى ١٩٦١

١٣ – الصحافة فى الولايات المتحدة : نشأتها وتطورها — سجل العرب — الطبعة الأولى ١٩٦١

٢ — فى التاريخ والتراجم

١٤ — فى السودان	دار مجلى	الطبعة الأولى	١٩٣٦
	مكتبة الأنجلو	الطبعة الثانية	١٩٤٦
١٥ — تطور النهضة النسائية فى مصر (بالاشتراك)	مكتبة الآداب	الطبعة الأولى	١٩٤٠
١٦ — تذكار طلعت حرب (بالاشتراك)	مكتبة الآداب	الطبعة الأولى	١٩٤٥
١٧ — سجل العرب (فى ألف صفحة بثلاث لغات)	سجل العرب	الطبعة الأولى	١٩٦٠
	سجل العرب	الطبعة الثانية	١٩٦١
١٨ — إنسان الجزيرة	مكتبة الآداب	الطبعة الأولى	١٩٥٤
١٩ — سيرة من الحرمين	سجل العرب	الطبعة الأولى	١٩٦١
٢٠ — قصة المطبعة	سجل العرب	الطبعة الأولى	١٩٦٠
	سجل العرب	الطبعة الثانية	١٩٦٧
٢١ — قصة الجريدة	سجل العرب	الطبعة الأولى	١٩٦٠
	سجل العرب	الطبعة الثانية	١٩٧٣
٢٢ — السندباد العربى فى الكويت	سجل العرب	الطبعة الأولى	١٩٦٥
٢٣ — دولة الكويت الحديثة	سجل العرب	الطبعة الأولى	١٩٦٢

٣ — فى الأدب

٢٤ — الحياة الثانية	مكتبة الآداب	الطبعة الأولى	١٩٣٢
	مكتبة الآداب	الطبعة الثانية	١٩٤٤
	مكتبة الآداب	الطبعة الثالثة	١٩٤٧
	كتب للجميع	الطبعة الرابعة	١٩٥٠
٢٥ — فى المصايف	مطبعة سكر	الطبعة الأولى	١٩٣٤
٢٦ — الناس معادن	سجل العرب	الطبعة الأولى	١٩٦٠

٤ — فى السياسة

٢٧ — الثور فى متحف الخزف	مكتبة الآداب	الطبعة الأولى	١٩٥٣
٢٨ — رسائل من نفاقستان	سجل العرب	الطبعة الأولى	١٩٧٣
	سجل العرب	الطبعة الثانية	١٩٧٣
	سجل العرب	الطبعة الثالثة	١٩٧٤
٢٩ — الوسواس الخناس	سجل العرب	الطبعة الأولى	١٩٧٤
	سجل العرب	الطبعة الثانية	١٩٧٤
	دار الشروق	الطبعة الثالثة	١٩٧٥
٣٠ — تاريخ بلا وثائق	سجل العرب	الطبعة الأولى	١٩٧٥

مطابع سِجل العَرب
٩ شارع عماد الدين - ت ٩٣٢٧٠٦

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٦٠٥ سنة ١٩٧٥

تقرأ في هذا الكتاب

* هل فجّر هيكل ثورة ٢٣ يوليو ؟
* التاريخ يكشف عن الأبطال المغمورين الذين فجروها ...
* الحكومة لا تكتب التاريخ والتاريخ لا يكتب بقرار ...
* هيكل وتاريخ الهوى ...
* على الروس ديون لمصر يجب أن يسددوها ... مع فترة سماح ...
* ما لكم وفرعون .. إن لفرعون ميزات وحسنات ...
* السيدة الأنيقة M.A تبيع طاقماً مسروقاً من منزل منى عبود ...
* بعد جرد القصور أصبح الأول مليونيراً والثانى مالكاً لقصر بمدينة المهندسين
* كفانا تدليلاً للأسماء والمسميات ... إنها جرائم لا سلبيات ...
* من الذى باع لليهود أرض فلسطين ؟
* كيف جاعت مصر وتعرت وتسولت من أجل فلسطين ؟
* دولة وهمية مع القذافى ويوم عرس وسط القحة وسوء الأدب ...
* جاء فى الأثر : ولا تعلموا أولاد السفلة العلم ...



الثمن ٤٠ ص